الباب الرابع

الحروب الصليبية وتحرير القدس على يد صلاح الدين

الفصل الأول

المبحث الأول

الحروب الصليبية

جذور الحقد الصليبي على الإسلام:

الإسلام دين التوحيد والتسامح والانقياد لعبادة رب العباد، فالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله،كل لا يتجزأ، من العقيدة الإسلامية قال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (1)

فدين الله واحد أنزل على جميع الأنبياء والمرسلين، من لدن آدم عليه السلام، مروراً بالأنبياء والمرسلين، حتى بزوغ آخر دعوة وأتم رسالة ألا وهي رسالة (الإسلام)0 فالشرائع السماوية أنزلت على الأنبياء والمرسلين واحدة، قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ (2)

فإيماننا نحن المسلمين بالشرائع السماوية وبالأنبياء والمرسلين،لا خلاف عليه، قال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ (3)

هذه فطرة الإسلام الحقيقية، فما جاء الإسلام ليسلب الناس حرياتهم الدينية، ولا حقوقهم المدنية، ولا أدل على شواهد هذا، ما تمتع به أبناء الديانات الأخرى، في ظل الحكم الإسلامي على مر العصور، فقد جاء الإسلام كما قال ربعي بن عامر لكسرى فارس: جاء الإسلام لإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

أما رسالة الإسلام التي أوكلت إليه بعد أن اشتد عوده، وقويت عزيمته، فكانت مشروعية الجهاد في سبيل الله لسببين رئيسين وهما:

---

(1) القرآن الكريم، سوره البقرة، آية285 .

(2) القرآن الكريم، سورة الشورى آية 13.

(3) القرآن الكريم، سورة الكافرون آية 1- 6 .

1- الدفاع عن النفس المسلمة عندما يقع عليها اعتداء من أي طرف خارجي.

2- الدفاع عن الدعوة الإسلامية إذا وقف أحد في سبيلها بفتنة من آمن بإختياره.[1]

ومن هذا المنطلق، فقد كانت الديانات السابقة للإسلام قد أصابها الخروج عن جادة الصواب،كما أن العرب كانوا يعبدون الأصنام، فكان الهدف من هذا الدين العظيم تصحيح العقائد البالية وإعادة البشرية إلى جادة الصواب.

من البديهي ألا تكون الطريق مفروشة بالورود، لكن الطريق صعب وشائك، والأعداء كثر سواء من أبناء الديانات السماوية كاليهودية والنصرانية، أو من أبناء الديانات الوثنية، فوقف الإسلام أمام جميع هذه التحديات، إلى أن كتب الله له النجاح والتفوق على غيره، فآمن بهذه الدعوة المؤمنون وعمّت رسالة الإسلام مشارق الأرض ومغاربها، فلا غرو إذن أن يناهض الإسلام غير المسلمين، ويقفون له بكل ما أوتوا من قوة وعزيمة.محاولين تقويض هذا الدين لما وصلوا إليه من حقد وكراهية، لأنه دين التوحيد الذي سحب امتيازات المتنفذين منهم وجعلها لله وحده.

إن الذي يهمنا في هذا المجال، كيف أن أحبار يهود وقساوسة النصارى وعتاة الجاهلية اتحدوا ضد هذا الدين الحنيف؟ فأخذوا يكيدون المكائد ويكيلون الدسائس، علّهم يضعون حداً لانتشار نور الله في الأرض، بيد أنهم فشلوا وذهبت مؤامراتهم أدراج الرياح، وأصبح دين الإسلام هو نور الله في الأرض.

استمر هذا العداء السافر منذ عهد الرسول الكريم (ﷺ) مروراً بالخلفاء الراشدين، وقد كانت الحرب برفع الصليب في معارك فلسطين واليرموك والتي آلت إلى خروج البيزنطيين الروم من هذه الديار. (إن مغتصبي أرض الشام من الأوروبيين (الروم) لم يكونوا يواجهون المسلمين وحدهم بل كان متحالفا معهم عدد كبير من نصارى الشام العرب)[2]"إن هذا الموقف هو نفس الموقف الذي يتكرر الآن، فالعدو اليهودي وأبناء أوروبا – وأمريكا – يتحالفون ضد المسلمين. النصارى (والمارقون العرب)، وللأسف فإن الأمة لا تستفيد من توجيهات ربها ورسولها بل ولا تتعظ من تاريخها، بل ما زال يعيش بيننا حتى الآن من يضع يده في أيدي هؤلاء الذين لا يريدون أن ترتفع للإسلام راية".

المطلب الأول: لماذا هذا العداء للإسلام؟!

شكّل الإسلام منذ ظهوره متغيّراً فاعلاً في تاريخ الحضارة الإنسانية عامة، وتاريخ الأديان خاصة، ومعنى الفاعلية هنا يتخذ دلالة أوسع مما هو معروف، فالإسلام ليس دينا فحسب، إنما هو ثقافة ونمط حضارة، ولذلك كان ولا يزال ينظر إليه في الدوائر الدينية والثقافية والحضارية الغابرة نظرة شك

(1) أبو صالح،محمد ذياب– الهجرة النبوية دروس وعبر، دار الاعتصام للنشر – الخليل سنة 1994 م، ص 143.
(2) ابن هشام، السيرة النبوية، ج 3 ص 467 .

وريبة وخوف، فهو سريع الحركة صاعق التأثير على المختلف. ومرد هذه الهواجس يعود إلى المعطيات التاريخية الدائرة في فلك الظهورية الإسلامية.

" إننا نلاحظ أنه في القرن السابع والثامن للميلاد، كانت الجيوش التي تحارب باسم أول إمبراطورية إسلامية وهي (الخلافة)، قد توسعت حتى بلغت قلب العالم المسيحي فاحتلت مقاطعات من الإمبراطورية البيزنطينية في سوريا والأراضي المقدسة ومصر، واتجهت غرباً حتى شمال إفريقيا وأسبانيا وصقلية ولم تكن هذه الفتوحات عسكرية خالصة، بل تبعها على مر السنين اعتناق الدين الإسلامي على نطاق واسع"[1]

" تنامت مع الزمن لدى المختلف (الغرب المسيحي) هواجس الخوف من الإسلام، فقد طالت أوصاله الشتات المسيحي، فكان الفتح المضاد والذي تمثل في حروب الفرنجة(الحروب الصليبية) التي استمرت منذ القرن الحادي عشر، حتى الثالث عشر الميلادي بخلق حالة من التداخل المتكافئ بين الإسلام والمسيحية، الشرق والغرب.

بهذه المواجهة اتخذ مفهوم " الآخرية " بعداً جديداً، وبعداً دينياً، لكنه قائم على فكرة الصراع، وفي الوقت الذي كانت فيه العلاقة بين الشرق والغرب، علاقة متواصلة عملياً، كالتبادل التجاري مثلا ، فإنها بعد الفتوح الإسلامية، والحروب المسيحية المضادة أخذت بعداً أكثر شمولاً، فالمعرفة بالآخر أضحت متبادلة، والوعي بالآخر أمسى تمثلا (Representation)، وليس مجرد نظرة سطحية عابرة، فمن النظر إلى الآخر كقوة اعتقادية مقرونة بنزوع جسدي ميداني، وحربي إلى النظر إلى الآخر كقوة معرفية، وشيئا فشيئا مثل هذا التوجه إلى الشرق الإسلامي في حروب الفرنجة ومنه إلى تمثل معطياته الفكرية، وخطابه الثقافي، منفصلاً تاريخياً مهّما في تاريخ العلاقة بين الغرب والإسلام"[2].

وإذا جاز لنا في هذا السياق، أن نتجاوز مرحلة الحروب الصليبية (الفرنجة) ونقفز إلى استمرارية العداء الصليبي على الإسلام، بل ونموه المضطرد، بعدما أصيب الفكر الصليبي الحاقد بالنكسات العسكرية، ولم يحقق أهدافه على الواقع الميداني بانتهاء الحروب الصليبية، إثر النهضة الإسلامية وتصفية الوجود الصليبي من هذه الديار، فقد أخذ الغرب الحاقد بانتهاج وسلك أساليب متعددة للعودة إلى هذه الديار، علّه يجد له فيها مرحلة جديدة تؤهله السيطرة على مقدساتها وثرواتها.

---

(1) د- حوراني، ألبرت،الإسلام في الفكر الأوروبي 0ط1، بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع، سنة 1994م ص7.

(2) رسول،محمد رسول،الغرب والإسلام (استدراج التعالي الغربي)،ط1، عمان: دار أسامه للنشر والتوزيع، 1999ص8.

تنامت لدى الغرب هواجس النظر إلى الشرق الإسلامي، ليس كقوة دينية فقط، بل هو قوة كامنة في جميع مناحي الحياة من سياسية واقتصادية وحضارية وفكرية وعلمية وإنسانية، فظهرت لدى الغرب تأملات كبرى صوب الإسلام، ليس النظر إليه من واقع ديني فحسب بل الدخول إلى مكنون هذا الدين العظيم (المعجزة)، فكان لا بد من فهم لغة هذا الدين، فبرزت لدى العديد من علماء الغرب فكرة تعلم اللغة العربية، التي هي مدخل لهذا الدين، ونظرة أخرى ألا وهي ظاهرة الاستشراق التي بدأت غراسها لدى العالم المسيحي الغربي لفهم مكنون هذا الدين.

لقد كان رمز الصليبيين(الفرنجة) شعارهم القائل "دمروا الإسلام" فليس أمامهم إلا حل واحد وهو تدمير هذا الدين العظيم، وقد قال زعماؤهم:

1. "ها قد هبت النصرانية والموسوية لمقاتلة المحمدية. وهما تتأملان أن تتمكنا من تدمير عدويهما" يقول غاردنر "إن الحروب الصليبية لم تكن لإنقاذ القدس، إنها كانت لتدمير الإسلام".
2. ونشيد جيوش الاستعمار كانت تقول "أنا ذاهب لسحق الأمة الملعونة، ولأحارب الديانة الإسلامية، ولأمحو القرآن بكل قوتي".

ويقول المستشرق الفرنسي كيمون في كتابه "باثولجيا الإسلام" إن الديانة المحمدية جذام تفشى بين الناس.00ويتابع هذا المستشرق المجنون: أعتقد أن من الواجب إبادة خمس المسلمين، والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة، وتدمير الكعبة، ووضع قبر محمد وجثته في متحف اللوفر"[1] وإذا ما تتبعنا العديد من أقوال المستشرقين والحاقدين والنصارى المتحاملين على الإسلام والمسلمين، فإن المجال هنا يطول، ولكن نكتفي بهذا النزر اليسير لنجلي للقارئ المسلم الصورة ونوضحها له ليعلم من أين مكمن الخطر، والسبل اللازمة لعلاج هذا الداء المستشري على هذه الأمة.

المطلب الثاني: الرواد الغربيون الأوائل الداعون لتعلم اللغة العربية

إن أول من دعا إلى تعلم اللغة العربية في الغرب هو الفيلسوف الإنجليزي روجر بيكون سنة 1214 م – 1294 م وريموند لول 1235م – 1316 م وقد تبنى افكارهما مجمع فينا المنعقد سنة 1312م [2]

بدأت رحلة جديدة لتعلم اللغة العربية وذلك بإنشاء مراكز علمية متخصصة في علوم اللغة العربية، وكان على رأس هذه المؤسسات في نهاية القرن السادس عشر الميلادي،ففي سنة 1587 م بدأ

---

(1) العالم –، جلال، قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام أبيدوا أهله، ط9، دار السلام: 1979م، ص61.

(2) بنسالم، حميش، / الإستشراق في أفق انسداده،ط1؛ الرباط: مجلس القومي للثقافة العربية، 1991م ص.

تدريس اللغة العربية بانتظام في الكوليج دي فرانس في باريس. في سنة 1613 م أنشئت أستاذية لتدريس اللغة العربية في جامعة ليدن في هولندا. وكان أول من تبوأ هذا المنصب العالم الشهير توماس أربانيوس.

ففي سنة1632م أنشئت أستاذية في جامعة كامبرج في بريطانيا، وفي سنة 1634 م أنشئت أستاذية أخرى في جامعة أكسفورد أيضا. ومن ذلك الحين بدأت دراسة المصادر العربية بشكل جدي وثابت، وظهرت صورة الرسالة الإسلامية أكثر وضوحا.[1]

وفي القرن السابع عشر توسعت النظرة إلى العالم الإسلامي، ليس من وجهة لغوية بل تعدى ذلك أيضا على صعيد المشاريع المعرفية المتخصصة، المستجيبة من جهة لظهور الدولة المركزية القوية في أوروبا ولحاجات نموها الاقتصادي المرتبطة من جهة أخرى بالتهديد الإسلامي، المتمثل في الإمبراطورية العثمانية على وجه التحديد.[2]

ازدادت الدراسات والأبحاث الفلسفية إلى الإسلام كدين، فمنهم من نظر إليه على أنه دين العقل والتسامح وعدم التعصبً، ومنهم من أخذ منه موقفا عدائيا. ففي القرن التاسع عشر أصبح الإسلام – بعد هذه الدراسات المستفيضة أكثر وضوحاً فبرزت نظرتان لهذا الدين.

- **النظرة الأولى:** ألا وهي نظرة الإعجاب بهذا الدين العظيم بما فيه من قيم روحيه ومبادئْ سامية.
- **النظرة الثانية:** ألا وهي نظرة الحقد والتعصب الأعمى ضد هذا الدين. ففي هذه المرحلة تولدت الخلافات المتصارعة، ونظرة المفاضلة بين الشعوب، وأخذت تبدو على السطح فكرة التمييز بين الجنس الآري المتمثل بالغرب والمتفوق على الجنس السامي الذي يعيش في الشرق،وقد انسحب هذا الفكر الاستعلائي بالعمل على استعمار شعوب المسلمين.

في القرن العشرين تفوق الغرب علمياً، و تكنولوجياً، وعسكرياً، فظهرت في هذه المرحلة ظاهرة الاستعمار التي التهمت الشرق بخيراته، فانهارت بعدئذ الخلافة الإسلامية، وبرزت في المنطقة دويلات صغيرة تابعة للغرب لا حول لها ولا قوة، تنتهك أراضيها وتستنزف ثرواتها، وتمتص خيراتها، عاجزة صناعياً وزراعياً وعلمياً عن مجاراة الغرب ولها سقف لا يسمح تجاوزه.

ومن هذا المنطلق كان لا بد لنا من العودة إلى موضوعنا، ألا وهو جذور الحقد الصليبي، وقد علل هذا الموضوع (ظفر الدين خان) في كتابه "تاريخ فلسطين القديم" بقوله: "إن الاعتقاد الشائع يرى أن الحملات الصليبية هي الحملات التي أتت من أوروبا لغزو فلسطين، أو بالأصح لغزو الشرق الإسلامي، ولكن الحقيقة أن الحملات الصليبية المنظمة قد بدأت،أو بالاسم نفسه، قبل مجيئها إلى الشرق

---

(1) ألبرت حوراني – مصدر سبق ذكره ص 22.

(2) دبن سالم حميش – مصدر سبق ذكره ص 22 .

بأكثر من قرن، وكانت موجهة ضد الأندلس والممالك الإسلامية الأوروبية، ففي سنة 970 م كان المسيحيون قد بدأوا يحاربون المسلمين حرباً مسلحة نشيطةً، واحتلوا صقلية وأجزاء من أرمينيا واستمرت هذه الحملات الشعواء حتى انهارت الدولة الأموية في الأندلس في السنين الأولى من القرن الحادي عشر.

كان الاسبان الذين يقاتلون المسلمين، يتلقون مساعدات نشطة من الأمراء الأوروبيين ومن الكنيسة، وقد بدأ رجال مدينة بيسا غزو سردينية بناء على تحريض البابا (بينيد كت) الثامن، وقد بدأ النورمان يحاربون عرب صقلية ابتداء من سنة 1060م إلى سنة 1090م وكانوا يحاربون كأتباع (vassals) للبابا وكان شريكاً أساسياً في حرب أتباعه المقدسة هذه.[1]

إن مبادرة البابا التي تدين لها الحملات الصليبية في أساسها كانت من أول لحظة حقيقة لافتة للنظر.[2]

حاول الباحثون من الشرق والغرب ترجمة الدوافع الحقيقية للحروب الصليبية، في العصور الوسطى، فذهبوا مذاهب شتى، وكانت الآراء المتباينة على النحو التالي:

1. الزعم القائل بأن هذه الحروب كانت نتيجة استيلاء الأتراك السلاجقة على بلاد الشام وسيطرتهم على طريق حج الفرنجة إلى القدس.
2. شعور الغرب الرومي بالهزيمة أمام السلاجقة في معركة ملاذ كرد عام 463 هـ وفق 1070 م مما أثار حفيظة الغرب لاسترداد هيبتهم.
3. الوضع الاقتصادي والاجتماعي وسيطرة الكنيسة والانغلاق الفكري، والتخلف الذي حاق بالغرب وفي مقابله التطور الفكري والديني والرفاه الاقتصادي أثار شهوة الغرب الصليبي لهذا الغزو الحاقد.
4. الشراهة في احتلال بيت المقدس لتخليص قبر السيد المسيح، والمسيح من هذه الحرب براء، وقد صدق فيهم قول الشاعر أحمد شوقي في هذه الأبيات:

عيسى سبيلك رحمة ومحبة ... في العالمين وعصمة وسلام
ما كان سفاك الدماء ولا امرءاً ... هان الضعاف عليه والأيتام
يا حامل الآلام عن هذا الورى ... كثرت عليه باسمك الآلام[3]

---

(1) -ظفر الإسلام خان، تاريخ فلسطين القديم، بيروت: دار النفائس، 1972 م ص167.

)2- (ENCY BRIT VOL 13.P. 44

(3) أحمد شوقي، الشوقيات المجلد الأول الجزء الأول بيروت – دار العودة ص234.

المطلب الثالث: البدايات الحقيقية للحروب الصليبية

أجهد الباحثون الغربيون أنفسهم في محاولة لتحديد موعد الحروب الصليبية.

إن الحرب بين العرب المسلمين من جهة، وبين الروم البيزنطيين من جهة أخرى، قد أخذ شكل حروب صليبية منذ البدايات الأولى للفتح الإسلامي،واستمر هذا الصراع في صعود وهبوط طوال العهد الأموي والعباسي، حتى إذا ما كان عهد ملوك الطوائف وتمزقت الأندلس إلى ممالك إسلامية متصارعة، انتقل (نصارى الأندلس) للهجوم بدعم وتوجيه من الكنيسة التي حاولت حشد القوى لدولة النصارى في جبهة واحدة، وكانت هذه الدول تخوض حروبا ضد بعضها البعض، فنجحت الكنيسة في فرض السلام الداخلي، وتوجيه العداء نحو الخارج، وقد وجد هذا العداء له متنفسا على أرض الأندلس، وقد تشجع الأساقفة بما حققوه من نجاحات، حتى إذا ما كان مؤتمر(كليرمونت) 18-28 تشرين ثاني نوفمبر1095 م وجد ثلاثمائة من رجال الدين أن الفرصة قد حانت لإعلان الحرب الصليبية، وأطلق البابا إيريان الثاني صيحته الشهيرة فلينطلق المسيحيون في الغرب لنجدة الشرق وبدأت عجلة الحرب الصليبية بالتوجه نحو الشرق[1]

لكن هناك ادعاء باطل، وحجة واهية، ألا وهو تحرير قبر السيد المسيح من أيدي المسلمين من ناحية ونجدة النصارى في الشرق من اعتداء المسلمين عليهم وإعادة حقوقهم إليهم، ولكن الحقيقة سواء كان قبر السيد المسيح كما يزعمون أو حياة النصارى في ظل الحكم الإسلامي، فإن شهادات المؤرخين والباحثين من غير المسلمين هي أكبر الدليل على ما كان يتمتع به النصارى الذين كانوا يعيشون في المجتمع الإسلامي، وأن أي ادعاء آخر ما هو إلا تضليل للرأي ومبرر لا أصل له: كما ورد في كتاب المفصل لعارف العارف.

(قال الأستاذ رئيف ميخائيل الساعاتي "إنصافا للحق يجب أن نصرّح بأن مسيحي فلسطين كانوا يعيشون مع المسلمين،إخوانهم في الوطنية واللغة، في سلام وصفاء، وكان الخلفاء يسندون الوظائف العالية إلى أصحاب المواهب منهم، أما الاضطهاد الذي كان يحيق بهم في بعض فترات التاريخ، فترجع إلى شذوذ عقلية بعض الملوك الذين لم ينج المسلمون أنفسهم من أذاهم. فإذا كان ملك مستبد عاتي، فمن الظلم أن نقيس عليه سائر الملوك. [2]

---

(1) رنسيمان،تاريخ الحروب الصليبية،الفصل الثاني ص 141.

(2) مجلة الراعي الصالح الجزء السابع ص 133 في 30 سبتمبر 1940 م.

وقال الأستاذ سيد أمير علي "كان المسيحيون منذ تأسيس الدولة الإسلامية مغمورين بفيض من الكرم والتسامح، فكانوا يؤدون مراسيمهم الدينية بالحرية التامة، ويتمتعون بحقوقهم المدنية كاملة غير منقوصة، ويتنقلون في أنحاء الإمبراطورية حسبما يشاءون وأينما يبتغون، ويتكاتبون مع أمراء الدول الأجنبية دون لوم أو تثريب، كما كان لهم الحق في تملك الضياع والأرضيين، وعلى الجملة كانوا يتمتعون بكل ما كان يتمتع به المسلمون.

أما مناصب الدولة فكانت مفتوحة أبوابها أمامهم دون تفرقة بينهم وبين المسلمين، باستثناء أيام الحكام المتعصبين، وكانت الكنائس والأديرة المسيحية قائمة في كل مكان، وكان الحجاج المسيحيون يؤمون القدس من كل حدب وصوب بسلام آمنين، ولم يتيسر لهم ذلك إلا بفضل احتلال العرب لتلك البلاد، وفي بيت المقدس الذي يحترمه معتنقو الديانة الإسلامية والمسيحية، خصص حي كامل لسكن البطريرك والكهنة (1063م – 1110م).

ولكن بعض المهوسين من الحجاج لم يكونوا ليخفوا من غلوائهم ومعتقدهم أن المسيحيين مظلومون، وكانوا ينظرون إلى بقاء المسلمين في القدس بعين البغض والاستنكار، وكانوا يعودون إلى بلادهم وقلوبهم مملوءة بالحسد والحقد"[1]

وقد أيد هذا الرأي ما قاله المقدسي الذي زار بيت المقدس، قبل الحروب الصليبية بقرن حيث قال "حيثما ذهبت وجدت اليهود والنصارى أصحاب الكلمة العليا".

وقد قال -غاي لو سترينج- في مقدمة كتابه "يجدر بنا أن نعترف أن المسيحيين لم يكونوا بمضطهدين ذلك الاضطهاد الذي اتخذوه سبباً لحملاتهم الصليبية"[2]

المطلب الرابع: أسباب الحملات الصليبية على ألسنة المسيحيين

يقول نجيب العقيقي (مسيحي لبناني)"إن الباباوات بعد أن وقفوا عل شغف العالم الأوروبي بالثقافة العربية، حيث كان يترتب على الذين يريدون الوقوف على حضارة عصرهم أن يجيدوا اللغة العربية، وللعربية فلسفة، وفلسفتها تناقض الإنجيل، وكان العرب قد سادوا العالم بالقرآن، وكاد صوت المؤذن يتغلب عل صوت الناقوس، وكاد العرب يشكلون خطراً على أوروبا في دينها ودنياها لذلك سعوا لمقاومتها بطرق مختلفة".

---

(1) علي، سيد أمير،تاريخ العرب والتمدن الإسلامي ص 276 (A short History of the Saracens) ترجمه إلى العربية رياض رأفت وطبع بالقاهرة عام 1938م حيث كان المؤلف عضوا في مجلس شورى الملك بإنجلترا.

(2) Description of Syria Including Palestine،Guy Le.Strange

أولا: تحريم الفلسفة الإسلامية والأخذ بها.

ثانيا: تشييد مدارس لتعليم العربية والعبرية والكلدانية في أشهر عواصم أوروبا.

ثالثا: إنشاء رهبنة الأخوة الوعاظ أي(الدومينيكيين) وتثقيفهم الثقافة العربية، وجعلوا دستورهم التبشير بالمسيحية، والرد على القرآن.

ولقد أذكى الأمراء في الشعب عاطفته الدينية، فقالوا له: (أنت مسيحي) وصوروا له المغارة التي ولد فيها المسيح، وكرم الزيتون، والعشاء السري، وطريق الجلجلة، وقب المسيح، مخضباً بالدم !ثم قالوا له: أيجوز أن يبقى قبر المسيح بيد محمد وجماعته؟ وقد وصفوا له محمداً النبي العربي الكريم بعبارات تدل على جهل وتعصب لا يبررهما إلا تغرض وإرادة يرميان إلى استفزاز شعور العامة على قتال المسلمين [1]

وقال هنري إيمرسن فوسديك " إن الحافز الأساسي للحملات الصليبية لم يكن سامياً بالشكل الذي حاولوا إفهامه للناس، فقد أماط البابا أوربانوس اللثام عن الحقيقة عندما نادى إليه الأمراء الإقطاعيين الذين كانوا دوما يقتتلون، وقال لهم: " إذا كان لا بد من إراقة الدماء، فهاكم الكفار ! اذهبوا إليهم واغمسوا أيديكم في دمائهم.000وإن كنت أحدثكم بهذه الخشونة فما ذلك إلا لأن رسالتي تحتم عليّ ذلك0 فيا جنود الجحيم، كونوا جند الله الذي لا يموت.00!"إلى أن قال فوسديك " ومن هذا يفهم أنه كتب عليهم مقاتلة المسلمين لئلا يقتل بعضهم بعضا. فكانت النتيجة أنهم قاتلوا المسلمين واقتتلوا. فقد حدثنا التاريخ أن العداوة والبغضاء تأصلتا بين مختلف الطوائف المسيحية بالآستانة، لدرجة أن رجال الكنيسة الأرثوذوكسية قتلوا بضعة آلف من اللاتين، ومن رجال الكنيسة الكاثوليكية، وباعوا زهاء أربعة آلاف آخرين في الأسواق بيع العبيد، فاشتراهم المسلمون، وراح الأرثوذوكسيون يصلون صلاة الشكر لله، عندما قطعوا رأس أسقف من أساقفة اللاتين، وربطوه بذنب كلب، وجروه في شوارع المدينة " [2]

كما قال المؤرخ الفرنسي – مكسيموس موند – " عقد البابا أوربانوس الثاني الاجتماع الأول لأجل ترتيب الحملة الصليبية في مدينة (بلاصا نس)حيث اجتمع ما يزيد على مائتي أسقف ورئيس أساقفة وأربعة آلاف إكليركي وثلاثين ألفا من العلمانيين المنتمين إلى مختلف الأقطار والأمصار اجتمع هؤلاء في الهواء الطلق في مكان فسيح خارج المدينة، فقرروا إرسال حملة صليبية إلى أورشليم ليأخذوا قبر المسيح من أيدي المسلمين، ولكن يظهر أن الاجتماع الأول لم ينجح، فقد انعقد بعد حين (1095 م)

---

(1) العقيق، نجيب، المستشرقون،بيروت سنة 1937م ص 42، 45 .

(2) Henry Emerson,Fosdick Pilgrimage to Palestin.London,student Christian Movment Press P.255.

اجتماع ثان في مدينة كليرمون، وكان الفصل شتاءً والبرد قارساً خطب البابا وخطب بطرس الناسك. فادعى: أنه شاهد المسيحيين مثقلين بالسلاسل الحديدية، يعاملون معاملة الأسرى والعبيد، وأنه رأى قبر المسيح مهاناً، وزواره مضطهدين من قبل أعداء الله والبشر، وأن كهنة الرب فقراء وأذلاء يجرون من داخل الكنيسة إلى الخارج، حيث يضربون ويقتلون "[1]

كنا قد استعنا بهذه المعلومات من المؤرخ الكبير، عارف العارف في كتابه "المفصل في تاريخ القدس" وهو خير دليل واصدق برهان لها وأحسن قدوة في هذه المرجعية عن هذه الحقبة التاريخية، مما سبق الحروب الصليبية من أحوال وأحداث تعتبر دليلا ساطعا في أمرين:

- **الأمر الأول**: وهو حالة المسيحيين في بلاد المسلمين وأن حالهم كانت بخير، وكانوا يتولون المناصب العالية، والمراكز الحساسة في الحكم، وأن حرية العبادة في كنائسهم كانت طواعية، ولهم الحق في التملك والتجارة والحياة الطبيعية.
- **الأمر الثاني**: كيف أنهم أنشأوا المدارس الفكرية، ومنعوا تدريس الفلسفة الإسلامية، وكم كان(لبطرس الناسك)الذي أذكى حماس المسيحيين، زوراً وبهتاناً، ضد المسلمين ودور البابا(أوربانوس الثاني) في إذكاء نار الفتنة، وإشعال أوارها في الغرب، وتأليب النصارى ضد المسلمين، وتصور حالة قبر السيد المسيح والأماكن المسيحية بالجور، والظلم وحالة رجال الدين المسيحيين بالبؤس والاضطهاد من قبل المسلمين !؟ والمسلمون مما يقولون براء. !؟

ويمكنني أن أشير هنا وفي هذا السياق، إلى أن هذه الحرب امتازت بأمرين رئيسين ألا وهما:

أولا: أن المؤرخين والمفكرين والباحثين على مدى العصور قد أجمعوا على أن هذه الحرب تسمى بالحروب الصليبية، وذلك لأنها جمّعت الأمة المسيحية تحت شعار واحد ألا وهو (الصليب)واتخذت منه شعاراً لها في هذه الحرب بحجة تحرير قبر السيد المسيح (عليه السلام) في القدس الشريف من أيدي المسلمين.

ثانيا: أن هدف هذه الحرب هو، القدس، على أن تكون تحت إمرة المسيحية اللاتينية وسحق كل ما فيها من غير أتباع هذا المذهب.

إذن –القدس– هي الهدف المرسوم، وهي بؤرة الحدث، ومن أجلها انفجرت شرارة الحرب الصليبية، وعلى أبوابها جرت أشرس المعارك وهي الهدف المنشود، فكم من مدينة أو ساحة معركة جرت عليها الحرب فقد جرت المعارك في القسطنطينية التي يفوقعدد سكانها القدس وفي الرها وأنطاكيا

(1) موند، مكسيموس، تاريخ الحروب المقدسة في الشرق، ط 1؛ أورشليم سنة 1841، ص 7 (ومسيموس هذا بطريرك أنطاكيا والإسكندرية وأورشليم وسائر الشرق).

وطرابلس وبيروت ومدن سواحل فلسطين مثل حيفا وعكا ويافا والرملة وغيرها من المدن لكنها لم ترسخ في أذهان المؤرخين ولم يخلد ذكرها كما خلدت القدس في هذه الحرب التي راح ضحية اقتحامها حوالي سبعين ألف في أكناف المسجد الأقصى المبارك من المسلمين، لأن هذه المدن ما كانت إلا محطات على طريق بيت المقدس.

لهذا فإن القدس وعلى مر الزمن لا يمكن تجاوزها في أي مرحلة من مراحل التاريخ فهي مفتاح النصر أو الهزيمة إلى أي أمة، فأي أمة تملك القدس تملك بقية البلاد وأي أمة تخسر القدس فإنها تخسر المعركة.وهذا هو قدرها لما امتازت به من قدسية وكرامة خصها الله بها على مر الزمن.

المطلب الخامس: حالة العالم الإسلامي قبل الغزو الصليبي لمدينة القدس

تطرقنا آنفا إلى الحالة التي كان عليها العالم الإسلامي في نهاية الخلافة العباسية، وما كان عليه الحال من تفرقة ومنازعات وصراعات وانقسامات ودول متحاربة، وكيف أن هذا الوضع أهّل الغرب الحاقد إلى أن ينشب أظفاره حيال هذه الأمة، ويمكنني أن أجلي الصورة بوضوح على ما كان عليه الوضع الإسلامي في تلك الحقبة كما هو مبين أدناه:

من المعلوم أن الدول كالإنسان، تعيش فترة طفولتها وشبابها وشيخوختها إلى أن تهرم وتموت، وهكذا فإن الخلافة العباسية قد بدأت فتية، وبقي هذا الحال إلى أن بدأت تأخذ قوى أخرى مركزيتها داخل الخلافة، فجاء دور الطولونيين والإخشيديين والفاطميين والسلاجقة، وانتهى الحكم المركزي من دار الخلافة في بغداد، واتسعت بل وتباعدت الشقة والخلاف بين أبناء الوطن الواحد والأمة الإسلامية،وانقسمت أملاكها إلى عدة دول ضعيفة متناحرة، فكان هذا الحال إيذانا بالتفرقة وانهيار الخلافة العباسية فيما بعد.

نشأت في الشرق الإسلامي دولة الفاطميين في مصر، وكان الصراع مريراً بينها وبين العباسيين في بلاد الشام، وقد استطاعوا بعد معارك دامية أن يسيطروا على أجزاء من بلاد الشام عام 1038م-1058م، ولما انحسر نفوذهم عن بلاد الشام، وتقلصوا في مصر، حدث معهم ما حدث لأتابكيات بلاد الشام من تفرقة وصراعات داخلية، مما تسبب في إضعاف هاتين القوتين الإسلاميتين الكبيرتين.

إن ما يهمنا في هذا الشأن هو القدس، وكيف كانت عليها الحال في هذه المرحلة، من المعلوم أن الفاطميين قد استولوا على دمشق، بيد أن أهلها قد ثاروا على الفاطميين بقيادة (أتسز) "وعندما ثارت بيت المقدس ضد أتسز وأعلنت تبعيتها للخليفة الفاطمي، أخضعها أتسز في عنف وأحدث فيها مذبحة رهيبة سنة 466هـ 1076م، إلا أنه لاقى هزيمة ساحقة عندما قام بمهاجمة مصر، وفرح أهل فلسطين

ودمشق بما لاقاه من هزيمة، لما عانوا منه من شدة واستبداد، ونتيجة لهزيمته وجه ملكشاه أخاه إلى بلاد الشام، واسترد فلسطين من الفاطميين، ثم أقطع تتش قائد أرتق بن أكسب بيت المقدس."[1]

الوصف الباكي لظروف القدس، قبل أن تسقط بأيدي الصليبيين، كما أوضحه ابن الأثير في كتابه الكامل، قال" كان البيت المقدّس لتاج الدولة تتش (سلجوقي) وأقطعه للأمير سقمان بن أرتق التركماني، فلما ظفر الأتراك السلاجقة على إنطاكية وقتلوا فيهم وضعفوا، وتفرقوا.00فلما رأى المصريون (الفاطميون) ضعف الأتراك ساروا إليه، مقدمهم الأفضل بن بدر الجمالي (أمير الجيوش) وحصروه وبه الأمير سقمان، وأيلغازي، ابنا ارتق وابن عمهما سونج، وابن أخيهما ياقوتي، ونصب عليه نيفا وأربعين منجنيقا، وملكوه أي الفاطميين بالأمان، في شعبان سنة 489 هـ وأحسن الأفضل إلى سقمان وإيلغازي ومن معهم وأجزل لهم العطاء وسيرّهم فساروا إلى دمشق... واستناب المصريون في القدس رجلاً يعرف بافتخار الدولة. فقصده الفرنجة بعد، حاصروا عكا فلم يقدروا عليها)[2]

ويعلل الدكتور(حمد عبد الله يوسف) في كتابه "بيت المقدس" عوامل أخرى لهذا التفكك فيقول "لم يكن التفكك السياسي وحده هو الذي ساد بلاد الشام عند قدوم الصليبين، بل أن هناك عوامل أخرى أدت إلى تفتيت وانقسام الوحدة الإسلامية، فهناك الانقسامات العنصرية والدينية واللغوية،كلها لعبت دوراً في عدم التجانس والانصهار بين فئات السكان.

كانت اللغة العربية هي لغة المسلمين، من غير الأتراك والمسيحيين اليعاقبة، أما اللغة الأرمنية فاختص بها الأرمن دون غيرهم، بينما ظلت اللغة التركية منتشرة عند بعض سكان سوريا وآسيا الصغرى من التركمان.

أما الاختلاف الديني فلم يكن أقل شأنا من الاختلاف العنصري، فاليهود قد مارسوا صناعات مختلفة في كثير من البلاد الإسلامية، كما كانت لهم أحياء خاصة يقيمون فيها، والمسيحيون كان لهم طوائف عدة ساعد وجودهم في المنطقة على انتشار اللغة العربية بينهم. [3]

أما الإغريق فقد كانوا يعتبرون أنفسهم طبقة أرستقراطية، بين العناصر المسيحية، وكانت عواطفهم مع البيزنطيين، أما الأرمن، فقد كان لهم عدة إمارات متنافسة، كما كان النزاع المذهبي بين الشيعة والسنة " هكذا حال العالم الإسلامي في هذه الفترة، أي ما قبل الغزو الصليبي لديار المسلمين، مما ألهب شهية الغرب المسيحي صوب هذه البلاد واجتياحها.

---

(1) عاشور، الدكتور سعيد عبد الفتاح، الحركة الصليبية،ج1 ص 105 .

(2) ابن الأثير مصدر سابق، ص 8/ 189.

(3) يوسف،الدكتور حمد عبد الله مصدر سابق، ص 146.

المطلب السادس: الحياة الاجتماعية في القدس قبل الغزو الصليبي

"كان لمدينة القدس قبل احتلال الفرنجة بنية اجتماعية وإدارية خاصة بها شأنها في ذلك الشأن أي مدينة إسلامية أخرى في المنطقة، طبقة حاكمة من الجند سواء من العساكر الفاطميين أو التركمان، ثم عامة السكان من العلماء والتجار الذين كانوا يشكلون زعامة "العامة" وأصحاب المهن والحرف المختلفة (من جميع المستويات) كما يظهر في الأسواق المتخصصة التي يذكرها لنا ناصر خسرو، وغير هؤلاء من العوام الذين كانوا يقومون بالخدمات المختلفة التي تحتاجها المدينة.

وتتركز إدارة المدينة وسكانها في الحاكم العسكري (الوالي) وممثلي مختلف دواوين الحكومة، وكان القاضي أهم هؤلاء جميعاً،في مجتمع المدن ويتبعه الشهود والكتاب، وكان القاضي يحكم طبقا للشريعة الإسلامية، سواء وفق المذهب الشيعي (لفاطمي) أو وفق المذاهب السنية (الأتراك أو التركمان) وقد شمل اختصاصه جميع المسلمين في المدينة، ومنطقتها الإدارية، إلا فيما يتعلق بقضايا المظالم التي كانت من اختصاص الوالي، الذي كان ينظر فيها في مجالس يجلس فيها القاضي إلى جواره، أما النصارى واليهود فكانت تحكمهم "شرائعهم" إلا في الحالات التي يكون المسلمون طرفا فيها، وكانت هناك فضلاً عن ذلك مؤسستا الحسبة والشرطة. ولكل منهما رئيس (صاحب) وأعوان وأعداد كافية من الرجال اللازمين لإدارة شؤون المدينة."[1]

المطلب السابع: حالة الغرب المسيحي قبل الغزو الصليبي لمدينة القدس

عاش مسيحيو الشرق كبقية رعايا الخلافة الإسلامية في أمن واطمئنان، وفي حياتهم الاقتصادية والدينية حيث أن الدين الإسلامي دين تسامح وحرية، ولكل حرية العبادة، وتمتعوا في أماكن عبادتهم وكنسهم بكل حرية وأمان، بيد أن هذا الحقد الصليبي المتعصب لم يخل من التشويه من قبل بعض الحجاج المسيحيين، الذين شوهوا هذا الحال، ونقلوا إلى الغرب الذي كان آنذاك في سبات عميق من الجهل والفوضى صورة قاتمة عن حال نصارى بيت المقدس، مما أثار حفيظتهم وزاد في حقدهم على الإسلام والمسلمين، بل زاد الطين بله، ما قام به بطرس الناسك من دعاية مغرضة وتجول في أنحاء الغرب المسيحي يدعو إلى تحرير القبر المقدس من أيدي المسلمين، كما أن هناك حالات من الوضع الاقتصادي المتردي في الغرب، أراد أن يخرج من شرنقته لينتقل إلى عالم ثري وأكثر تمدناً وحضارةً وثروةً من العالم الغربي.

---

(1) الحياري،مصطفى، مصدر سبق ذكره، ص 183.

(ذكر العقيقي أن من أسباب الحروب الصليبية، أن الباباوات بعد أن وقفوا على شغف العالم الأوروبي بالثقافة العربية، حيث ترتب على الذين يريدون الوقوف على حضارة عصرهم أن يجيدوا العربية، وللعربية فلسفة، وفلسفتها تناقض الإنجيل، وكان العرب قد سادوا العالم بالقرآن، وكان صوت المؤذن يتغلب على صوت الناقوس وكان العرب يشكلون خطراً على أوروبا في دينها ودنياها لذلك سعوا لمقاومتها بطرق مختلفة "[1]

أما وصف الروم الأرثوذوكس بأن الغاية من الحروب الصليبية "أن الصليبيين أظهروا بفعالهم أن غايتهم الحقيقية هي الاستيلاء على الأراضي المقدسة وجعلها لاتينية ولمحو الأرثوذوكسية منها "[2]

يقول (روجيه غارودي) في كتابه "فلسطين" أما (البابا) فكانت تلك الحملات لديه فرصة سانحة لإمكانية توحيد الحكام الطائشين بغية إنجاز مشروع مشترك معهم، وإقامة نظام ديني للحكم، وما دام المشروع بمبادرة البابا فسيكون هو نفسه الموجه والمسير، وفي الوقت نفسه كانت الحملات وسيلة لإرساء قواعد الكنيسة الرومانية في (الأرض المقدسة) كي تقف في وجه الكنيسة الشرقية، ولكي تكون مركز قوة لفرض وحدة الكنائس بزعامة البابوية، يقول كلود كاهن "إن إقامة دولة لاتينية في سوريا وفلسطين ستعمل على خلق قاعدة لنفوذ الكنيسة الرومانية في الشرق ".[3]

وهذا يدل بوضوح على أن الحملات الصليبية لم تكن من أجل تخليص المسيحيين في الشرق من ظلم واضطهاد المسلمين، وإنما لها أغراض سياسية واقتصادية واجتماعية ومذهبية.[4]

"والمسلمون كعادتهم التي ورثوها من دينهم الحنيف، لا يمكن لهم أن يضروا بالآخرين لو كانوا يحترمون ويقدرون أبناء الطوائف الأخرى، ففي ظل الخليفة الفاطمي (975 – 966 م) تسلم عيسى بن نسطوريوس وهو المسيحي منصب الوزير الأول، فعين اليهودي منسي بن عزرا حاكماً لدمشق مما جعل المسيحيين واليهود حكاماً للدولة، ولم يتعرض المسيحيون واليهود في أرض الإسلام إلى اضطهاد ومذابح كتلك المذابح الضخمة التي جرت في الغرب، ومنها المذابح الدموية العارمة إبّان احتلال الصليبيين للقدس، وفظائع محاكم التفتيش الكاثوليكية في أسبانيا في القرنين الخامس والسادس عشر، التي تناولت المسلمين واليهود والمسيحيين (الهراطقة) ومذابح اليهود في أوكرانيا بروسية المسيحية، وأخيراً مجازر ألمانية الهتلرية للشيوعيين والكاثوليك واليهود. "[5]

---

(1) العقيقي، نجيب مصدر سابق، ص 42–45 .

(2) قزاقيا،خليل إبراهيم،تاريخ الكنيسة الرسولية الأورشليمية ص 73.

(3) جار ودي،روجيه،فلسطين أرض الرسالات السماوية "ص 128.

(4) مصدر سبق ذكره – ص 148.

(5) جار ودي، روجيه، مصدر سبق ذكره، ص 126.

الفصل الثاني

المبحث الأول

انطلاق شرارة الحروب الصليبية صوب القدس

تجمّعت لدى الغرب المسيحي العديد من العوامل والمبررات المصطنعة، والتي لا أساس لها من الصحة، من أجل غزو بيت المقدس، فقد تم الاجتماع الأول الذي دعا إليه البابا أوربانوس الثاني في مدينة بلاصانس وقد تنادى لهذا الاجتماع ما يزيد على مائتي أسقف، ورئيس أساقفة وأربعة آلاف إكليركي، وثلاثين ألفاً من العلمانيين، اجتمع هؤلاء في الهواء الطلق وقرروا إرسال حملة صليبية إلى القدس من أجل تحرير قبر السيد المسيح من المسلمين.

يبدو أن هذا اللقاء لم يحقق أهدافه، وتم اجتماع آخر عام 1095م في مدينة كليرمون وخطب البابا وخطب بطرس الناسك في الجموع وهرعت الجماهير من كل حدب وصوب، محاربون من أجل الغنائم وفلاحون من أجل الأرزاق، رجال ونساء أطفال قساوسة ورهبان مشاه ورجال راكبون خيولهم وبغاله وحميرهم، يحملون سهامهم وأسلحتهم، لا قيادة موحدة، ولا نظام وترتيب كأنهم رعاة بقر، لا يجمعهم إلا هدف واحد، ألا وهو السلب والنهب والهمجية.

أعداد هائلة من جميع أنحاء أوروبا، عشرات بل قل مئات الألوف، ولم يُضبط لهم عدد أو يُحصى لهم رقم، وجل ما وصفه المؤرخون بأنهم كانوا كرمل البحر، أو أوراق الخريف، أو غير ذلك من العبارات التي تدل على كثرتهم،ولم يكن لهم قائدٌ واحدٌ يأتمرون بإمرته ويسيرون على تعاليمه، بل أن هناك ما يربو على الأربعة والثلاثين قائداً ونيف.

المطلب الأول: الصليبيون في الطريق إلى بيت المقدس

انطلقت هذه الجموع الغفيرة صوب بيت المقدس حاملة أحقادها رافعة صلبانها غير منظمة جموعها، قليل تموينها، السلب والنهب والخطف منهاجها، فقد كانت أنباؤهم تسبقهم قبل حلولهم الأرض التي يعبرون إليها مما أثار فزع أهلها ومخاوف سكانها لما اقترفوه من فظائع وما أحلوه فيها من بشائع، فكان أهل هذه الديار يحملون أمتعتهم ومقتنياتهم وأطفالهم قبل أن تصل إليها هذه الجموع المتوحشة، فهم كالجراد يأكلون في طريقهم الأخضر واليابس لا يفرقون بين ما هو حلال أو حرام وبين ما هو من أبناء دينهم أو من غيرهم.

- **المحطة الأولى**- صوفيا: عندما وصل الصليبيون إلى صوفيا، أمرهم الإمبراطور الكسيس كومنين، بأن لا يبقوا أكثر من ثلاثة أيام في المدينة، بسبب أعمال العنف والنهب التي اقترفوها.
- **المحطة الثانية** – القسطنطينية: أخذ الصليبيون يسطون على القصور والمنازل في ضواحي هذه المدينة، بل زاد الطين بله أنهم هجموا على الكنائس ونهبوها.
- **المحطة الثالثة** – أنطا كية: هاجم الصليبيون أنطا كية، بيد أنها استعصت عليهم لأنها كانت حصينة ذات أسوار منيعة، فتمركزوا عند الجانب الشمالي الغربي لأسور المدينة، وكانوا بقيادة بوهمند وريموند جود فري، وكان حاكم المدينة ياغي سيان التركماني، وطلب النجدة من دقاق أمير دمشق، ومن كربوقا أمير الموصل، ومن بركيا السلطان السلجوقي في فارس، ومن الخليفة العباسي في بغداد، كان هؤلاء الحكام في حالة من الضعف، لم يستطيعوا معها نجدته، كما أن معظم سكان أنطاكيا كانوا مسيحيين، فساهموا في مساندة الصليبيين، حيث تسلقوا الأسوار واستولوا على الأبراج ودخلوا المدينة، وقتلوا من فيها من المسلمين، فنجدهم كربوقا أمير الموصل، وهاجم الصليبين، وقتل منهم عدداً كبيراً، بيد أنه في النهاية،تمت الغلبة للصليبيين، واستولوا نهائيا على المدينة.

توجه الصليبيون نحو الجنوب، وقد رفض أميرا حمص وحماه التعاون مع الصليبيين، ووقفوا ضدهم، وحدث خلاف بين قادة الصليبيين، فبقي بوهمند في أنطا كية، وواصل ريموند المسير بقادة جيشه صوب القدس، واجتاز طرابلس حيث وقف شعبها الباسل، وأقدم على قتال الصليبيين والدفاع عنها، إلا أن قائدها المتخاذل آثر الاستسلام على المواجهة،وبيروت التي قدم أهلها الهدايا للصليبيين على ألا يؤذونهم أو يدمرونها، وصيدا التي تمركز أهلها خلف أسوارها، وصور وحيفا واحتلوها بمساعدة الأسطول البندقي، ومن ثمَّ ساروا باتجاه قيسارية، واحتلوها بعد أربعة أيام، وعكا، التي لم يستطيعوا اقتحامها، ويافا والرملة، التي فر منها أهلها خوفا من خطر الصليبيين وقد فرح الصليبيون باحتلالهم لهذه المدينة إذ أنه تعتبر حداً فاصلاً بين المنطقة الساحلية وسلسلة الجبال التي يطلون منها على القدس، كما أنها تعتبر نقطة هامة بالنسبة للإستراتيجية العسكرية،إذ بالاستيلاء عليها،تقطع خط الإمدادات عن القدس من ناحية البحر والفاطميين في مصر،وقد نصّب الصليبيون أسقفا منهم حاكما عليها.

في هذه الفترة، وبعد هزيمة كربوقا، حدث خلاف بين الأخوين دقا ق ورضوان، منعهما من التصدي للصليبيين، بالإضافة إلى أن الأفضل وزير المستعلي الفاطمي، الذي أستغل الحرب الناشبة في شمال الشام، فعمل على استرداد بيت المقدس، من ولدي أرتق سقمان وايلغازي، استمر القتال أربعين يوماً بينهم، ولم يسعهما إلا الاتفاق مع الأفضل والانسحاب خارج القدس سنة 492 هـ – 1098 م،

وتولى بعدئذ والي من قبل الفاطميين على بيت المقدس، اسمه إفتخار الدولة، وبقي حتى قدوم الحملة الصليبية، فقام بتحصين المدينة تخوفا من الخطر الصليبي القادم[1]

المطلب الثاني: الصليبيون على أبواب بيت المقدس

بعد احتلال الرملة واتخاذ الصليبيين منها قاعدة لهم للانقضاض على بيت المقدس، انقسم أمرهم إلى رأيين، فريق يريد أن يواصل المسير إلى مصر من أجل تحطيم قوة المسلمين الكبرى هناك لتخلو له المنطقة لقمة سائغة، وفريق يريد أن ينقض مباشرة على القدس، لأنها الهدف المرسوم لهم منذ خروجهم من بلادهم، ويبدو أن الفريق الثاني قد غلب رأية على رأي الفريق الأول، وتم اختيار القدس لتكون هي الهدف المنشود. "وقد تزعم هذا الرأي جودفري، فما كاد يصل إلى قرية القبيبة، حتى وفد إليه وفد من مسيحيي بيت لحم يحثونه على الإسراع إلى القدس، ووعدوه أن يقدموا له المعونة وهي في أيديهم ميسرة، وذلك لأن الحكام الفاطميين يستخدمونهم في تحصين المدينة، فأرسل جودفري فرقة استطلاعية بقيادة بلوين دي بورج ليتحقق من صدق نوايا أهل بيت لحم، فبلغوها مع الفجر، فلما علم بها مسيحيوها خرجوا حاملي الصلبان والأناجيل، مرتلين تراتيلهم الدينية، مهللين ممجدين الرب.

لذا رأوا فيهم مخلصين لهم، واستقبلوهم في كنيسة المهد، وأظهروا ما في نفوسهم من الفرح، فرفعوا الراية الصليبية على كنيسة المهد، وبعد ذلك لم يبق أي شك يخامر نفوس الصليبيين في نوايا مسيحيي بيت لحم، ولما علم جودفري بالأمر قرر السير إلى بيت المقدس في 6 يونيو سنة 493هـ – 1099م فعسكر الصليبيون أمام أسوار بيت المقدس"[2]

المطلب الثالث: تحصينات بيت المقدس

"تميّزت مدينة القدس منذ القدم بقوة تحصيناتها ومنعة أسوارها، فقد اهتم الرومان عبر قرون متتالية، بتحصين المدينة المقدسة، حتى تصمد في وجه هجمات الفرس، حيث كانت الحروب بين الدولتين العظميين (الروم والفرس) سجالاً، وكانت بلاد الشام هي المسرح الأساسي للأعمال القتالية، ولهذا لم يكن غريبا أن تحظى مدن بلاد الشام بالنصيب الأوفى من التحصينات الدفاعية، وبقيت أسوار مدن القدس[3] ودمشق وحمص وحلب من النماذج المميزة لتلك التنظيمات الهندسية الدفاعية، وعندما

---

(1) ألعريني، الدكتور سعيد ألباز، الشرق الأوسط والحروب الصليبية ج1 ص 261 .

(2) حبشي،د. حسن، الحرب الصليبية الأولى ص 15.

(3) تذكر المصادر التاريخية أن الإمبراطور الروماني أدريان الذي ولد سنة 76 م في روما، وحكم من سنة 117 حتى 138 م هو الذي شيد سور القدس سنة 130 م لمجابهة هجمات الفرس، وأن أدريان هذا هو ابن الإمبراطور تراجان بالتبني، فخلفه في الحكم، اشتهر بتشجيع الصناعات والآداب والفنون، وإصلاح جهاز

سارت جحافل المجاهدين في سبيل الله على درب الفتوح، كان لا بد لها من أن تصطدم بهذه الأسوار المنيعة والتحصينات القوية، وقد نهج العرب نهجاً مميزاً في التعامل مع أسوار المدن وتحصيناتها،فهم لم يصطدموا بها مباشرة، بل تركوا أمرها حتى تم لهم تدمير الكتل الرئيسة لقوات العدو في اليرموك، وفحل، واجنادين، وسواها. ولهذا فإن مدينة القدس لم يتم استلامها مباشرة، بل أنها بقيت إلى أن تم تحرير جميع بلاد فلسطين من حولها، وإلى أن فتحها عمر بن الخطاب (رضي الله عنه).

يظهر أن تحصين مدينة القدس بقي مرتبطاً بمكانة المدينة من الناحيتين الدينية والعسكرية، ولهذا فقد اعتبرت القدس، بصورة طبيعية، من أضخم الحصون وأقوى المعاقل في عالم العصور الوسطي، وقد اشتهر موقعها بالمتانة والقوة منذ أيام اليبوسيين، ووالتها يد الإصلاح والتطوير عبر القرون، فالأسوار التي عسكر الصليبيون الإفرنج في ظلها، جرت على نفس الرسم الذي سار عليه ما شيده من أسوار فيما بعد السلطان العثماني سليمان القانوني سنة (938هـ – 1531م)والتي تحيط اليوم بالمدينة القديمة، وهي أسوار تكاملت بصورة مثيرة في عهد الرومان(البيزنطيين) وبعدهم الأمويون ثم الفاطميون.

فالقدس مدينة حصينة منذ تأسيسها، كما أن موقعها الجغرافي، على رؤوس الجبال أهلها أن تحتل هذا الموقع الإستراتيجي العظيم،الذي أضفى عليها المنعة والحماية"[1]

فالقدس إذن مدينة من أقدم مدن التاريخ، ولهذا فإن بناتها الأوائل قد حافظوا عليها وحصنّوها بالأسوار المنيعة على مر العصور، وذلك لأهميتها الدينية وقدسيتها لدى جميع الأديان ومركزيتها لدى كل الحضارات، علاوة على أن الله(سبحانه وتعالى) قد وهبها الموقع الجغرافي المميز، لما يحيط بها من جبال، وما يكتنفها من أودية سحيقة، سيما من الجهة الشرقية، ولهذا فهي مدينة حصينة ومحصنة لا يمكن الولوج إليها بسهولة.

ولهذا فإن افتخار الدولة حاكم هذه المدينة عندما تناهى إلى مسامعه دنو الصليبيين من القدس، أخذ يعمل على تحصينها وشحنها بالعتاد والمؤن والرجال، فرمم الأسوار وقوى التحصينات وجهز الحامية التي أوكل إليها الدفاع عن المدينة، وجلّهم من المصريين والسودانيين الذين يبلغ عددهم حوالي أربعين ألف مقاتل، وقد عمد على تسميم الآبار وضم القنوات وإخراج النصارى من المدينة خوفاً من مساعدة إخوانهم الصليبيين، كما حرص على توفير المؤن لسكان المدينة إذا طال حصارها، وخرب

الإدارة والحكم، وشيد في روما قصر أدريان المعروف اليوم باسم (قصر القديس الملاك كما نظم مجموعة القلاع والتحصينات المتصلة على حدود الإمبراطورية الرومانية في إنجلترا وألمانيا لحمايتها من هجمات الشعوب البرابرة، كما شيد القلاع على حدود الإمبراطورية في إفريقيا.

(1) العسلي، بسام – فن الحرب الإسلامي (أيام الحروب الصليبية)، بيروت: دار الفكر، سنة 1988م، ج4، ص، 265، 267.

الحقول المحيطة بالمدينة خشية الاستفادة منها من قبل الصليبيين، واتخذ التدابير الكفيلة لمنع وقوع الخيانة ومالأة الأعداء، وقام بطلب النجدة من مصر، لما شاهده من كثرة عدد جنود الفرنجة.

يقول الدكتور (سعيد عبد الله البيشاوي) في كتابه "نابلس في عصر الحروب الصليبية" عن هذه الأحداث التي وقعت لبيت المقدس إبّان الاجتياح الصليبي لها" على أية حال: وصل الصليبيون إلى أسوار بيت المقدس في يونيو 1099م (رجب سنة 492هـ) وكان افتخار الدولة قد أخذ أهبته للدفاع عن المدينة، وأفسد ما حولها من مياه "الينابيع والعيون" كما قام سكان المدينة بإخفاء الماشية والقطعان في "الكهوف والمغاير"، فضلاً عن اهتمام إفتخار الدولة بتقوية تحصينات المدينة، والتأكد من سلامة أسوارها، معتمداً على حامية كبيرة من الجند المصريين والسودان، كما قام بطرد جميع المسيحيين من المدينة.

أما الصليبيون فقد فرضوا الحصار على المدينة فور وصولهم لها في السابع من يونية سنة 1099م (الثلاثاء الخامس عشر من رجب سنة 492هـ) وشرع قادة الجيش الصليبي في تضييق الخناق عليها، فاتخذ روبرت النرمندي وكنت فلاندر أماكنهما في الناحية الشمالية، بينما كان جودفري أوف بوايو Goff Bouillon))وتانكرد (Tanced)يحصرونها من الناحية الغربية والكونت ريموند صنجيل من الناحية القبلية على جبل صهيون."[1]

توالت جموع الصليبيين زاحفة صوب القدس، وأخذت تحيط بها إحاطة السوار بالمعصم، واتخذ كل قائد مع فصيلة من الفرنجة موقعه حول أسوار المدينة، قسم منهم أخذ موقعه تجاه باب الساهرة، وقسم تمركز أمام باب العمود،أما جزدفري البلجيكي أمير اللورين فقد خيم بإتجاه باب يافا أي باب الخليل حاليا، وقسم باتجاه جبل صهيون.

يصف رنسيمان هذا الحصار بقوله " إبتدأ الحصار في 7 حزيران 1099م، أي في نفس اليوم الذي وصلت فيه الحملة الصليبية إلى الأسوار، غير أنه لم يلبث أن تبين أن الزمن في صالح المحاصَرين، إذ توافر لدى إفتخار الدولة المؤن والماء، وفاقت أسلحته أسلحة الإفرنج، واستطاع أن يدعم أبراجه وأن يوثقها بأكياس امتلأت بالقطن والدربس، جعلت الأبراج تصمد لما ترميه عليها منجنيقات الإفرنج من قذائف، فإذا صمد إفتخار الدولة حتى يقدم عليه من مصر جيش لنجدته فإنه سوف يتخلص من الصليبيين، إنما على الرغم من ضخامة ما لديه من حامية، فإنها لم تكن كافية لحراسة جميع الأسوار، ولم يلبث الصليبيون أن واجهتهم مشكلة تدبير المياه، فما اتخذه افتخار الدولة من تدابير كانت ناجعة وقوية الأثر0 أما المورد الوحيد للمياه العذبة التي يصح أن تصل إلى المحاصِرين، فإنما جاء من بركة سلوان الواقعة بأسفل الأسوار الجنوبية التي تتعرض للقذائف من المدينة، ولتوفير المياه اللازمة لهم، كان لا بد

(1) البيشاوي، الدكتور سعيد عبد الله، نابلس في عصر الحروب الصليبية، ط 1، 1991ص46.

للصليبيين أن يسيروا ستة أميال أو أكثر. فإذا عرفت ذلك حامية المدينة، فإنها سوف تبعث جماعات صغيرة تكمن في الطرق المؤدية إلى الينابيع، ولقي كثير من الحجاج والعساكر مصرعهم، بعد أن تعرضوا لهذه الهجمات المفاجئة. وأخذت المؤن في النفاد أيضاً إذ لا يتوفر الغذاء بالقرب من المدينة. وزاد في قلق الصليبيين الحرارة والتراب والافتقار إلى الظل، نظراً لقدومهم من جهات باردة المناخ، ولأن كثيراً منهم اتخذ أسلحةً لا تلائم حرارة صيف فلسطين، تبين لهم جميعاً أنهم لن يستطيعوا الصمود لحصار طويل، بل ينبغي أن يبادروا بالاستيلاء على المدينة بالقيام بمهاجمتها[1]

في خضم هذه الأحداث الجسام التي كانت تحيق بمدينة القدس حيث كان الحرب سجالا بين الطرفين، تناوب هذه الأحداث أمران وهما:

أولا: وصول ست سفن جنوية إلى ساحل فلسطين، حيث رست هذه السفن محملة بالمؤن والعتاد لدعم الصليبيين الذين يحاصرون القدس، مما زاد في ارتفاع معنوياتهم أمام المدافعين.

ثانيا: تناهى إلى مسامع الصليبيين، أن الفاطميين في مصر قد أعدوا جيشاً ضخماً لنجدة بيت المقدس، مما عجّل في اندفاع الصليبيين صوب هذه المدينة لاحتلالها.

أدرك الصليبيون أنهم أمام واقع جديد لا يمكنهم من الوصول إلى هدفهم، حيث كادت المياه أن تنضب من حولهم والأخشاب اللازمة لبناء الأبراج غير متوفرة، فعمدوا إلى الاستفادة من النصارى المجاورين لإرشادهم إلى أماكن المياه وغابات الشجر ليصنعوا منها أبراجاً على دواليب خشبية، واشترك القادة والجند والنساء وأطفال الصليبين بهذا الجهد، مما زاد في رفع معنوياتهم. استطاع الصليبيون أن يبنوا برجين ضخمين ركزوا أحدهما بباب صهيون، أما الآخر فقد ركزوه بين بابي العمود وباب الأسباط، كما أنهم أنشأوا برجا احتياطياً ثالثاً، أغار المسلمون ليلا على برج صهيون وحرقوه وقتلوا من فيه من الصليبيين،أيقن الصليبيون أنهم عاجزون عن فتح بيت المقدس، فعادوا المحاولة كرة أخرى حيث عقد زعماؤهم مجلس شورى لوضع خطة جديدة لاقتحام بيت المقدس، فقاموا ليلاً بنقل البرج الخشبي المركب على الدواليب مع جميع مستلزماته إلى الجهة الشرقية من باب الأسباط ونصبوا آلات الحرب والمنجنيقان والكباش بين باب دمشق وبرج تنكر يد.

يوم الخميس الموافق 14 تموز سنة 1099م وعند شروق شمس ذلك النهار أمر القادة الجنود بالهجوم الشامل على مدينة القدس بجميع طاقاتهم البشرية، وعددهم العسكرية، وكانت أسلحتهم السيوف والنبابيت والخناجر والحراب والرماح والمقاليع، وكان الجنود يلبسون الدروع الموشاة بالصلبان،

(1) رنسيمان، ستيفن، مصدر سابق، ج1 ص 396.

ويحملون الرايات التي رسم عليها الصليب، والصور المختلفة والتماثيل. وكان كل قائد من الصليبيين يتقدم فيلقه، وعلى الجانب الآخر كان المسلمون في بيت المقدس يستبسلون دفاعاً عن مدينتهم، فأخذت الحامية تلهبهم بالنار الإغريقية، واستعملوا المواد الملتهبة والكبائر المشتعلة بالزيت والنشاب القوية، وكان لدى المسلمين أربعة عشر آلة حربية كبيرة مركبة على أسوار المدينة وأبلى المدافعون عن المدينة بلاءً عظيماً حتى مساء ذلك اليوم الذي لم ترجح فيه كفة أحد الفريقين على الآخر، ومما يذكر أن عدد المهاجمين من الصليبيين كان يربو على اثني عشر ألفا من الرجالة، وثلاثة عشر ألفا من الفرسان، بالإضافة إلى أعداد هائلة من الحجاج المسيحيين المساندين لهذه الحملة، أما عدد المدافعين عن هذه المدينة فكان حوالي أربعين ألفا من الرجال المصريين والسودانيين.

وفي اليوم التالي لهذه المعركة الشرسة، فقد تدافع المسلمون ضد البرج الذي كان فيه غودفري، واستطاع المسلمون أن يقتلوا عدداً كبيراً من رجاله في هذه الوقعة، وكان على الطرف الآخر ريموند وتنكر يد وروبرت يقاتلان فوق الأبراج الخشبية في شمال المدينة إلى أن التقى الفريقان وجهاً لوجه، ودارت الحرب بينهما بالسلاح الأبيض، فرجحت كفة المسلمين يومها على المعتدين، وحطموا الآلات الخشبية التي كانت مع المعتدين، وحل بهم العطش لبعد المياه عنهم،كادت الدائرة تدور على الصليبيين، لولا أن عاد الرجاء إليهم بإشاعة ألقاها بينهم رجال الدين قائلين " هو ذا القديس جاورجيوس، يطل عليكم من جبل الزيتون ! هو ذا العون الإلهي جاء ليحميكم ! فقاموا على اثر ذلك بالهجوم العنيف، وتمكنوا من دك البرج الكبير، فاجتاز الدوق دي لوربن من فوق الردم وأدرك السور وأمر غودفري بمد الجسر المرتفع، فمد، ومر عنه غودفري، وتبعه الآخرون، فدخلوا المدينة وأخذت النبال تنهال على المسلمين مثل المطر، وكذلك قل عن السهام النارية، وأقدم رجل يدعى (لتولدوس) وهو من أشراف فلاندريا تحت وابل من السهام، فارتقى السور ووضع عليه راية الصليب، الأمر الذي أثار حمية الصليبيين المهاجمين، فقاموا بهجماتهم الأخيرة، وكانت شديدة للغاية، ففتحت المدينة، وكان أول من دخلها من باب الساهرة غودفري دوبويون الإفرنسي، ثم خلع عساكر غودفري وعساكر تنكرد باب القدس أسطفانوس بضرب الفؤوس والمعاول ففتحوه، ودخل المدينة باقي جماهير الصليبيين: الساعة الثالثة بعد ظهر الجمعة الموافق الخامس عشر من تموز سنة 1099م – 492م[1]

يصف المؤرخ رنسيمان إنهيار المقاومة الإسلامية في بيت المقدس، قائلا " ولما تبيّن للمسلمين انهيار أسباب دفاعهم، ولوا الأدبار نحو الحرم الشريف، حيث كانت قبة الصخرة المشّرفة والمسجد الأقصى المبارك معقلهم الأخير، غير أنه لم يكن لديهم من الوقت ما يكفي لأن يجعلوه صالحاً للدفاع،

(1) الدباغ، مصطفى مراد مصدر سابق، ج9 قسم 2 ص 165.

على أن تنكرد أنقض عليهم، أثناء احتشادهم بداخل المسجد، وفي أعلاه، فبادروا بالتسليم والإذعان له، ووعدوا بأن يبذلوا له فدية كبيرة، وأخذوا علمه ورفعوه فوق المسجد، على أن تنكرد اخذ يعيث فساداً في قبة الصخرة، يدمر وينهب ما يشاء، وفي تلك الأثناء اضطرب السكان أثناء هروبهم إلى الأحياء الجنوبية بالمدينة، حيث لا يزال إفتخار الدولة يقاوم ريموند بعنف، غير أنه أدرك عند العصر أن كل شيء قد ضاع، وأنه لا أمل في المقاومة، فانسحب إلى برج داوود، الذي عرض أن يسلمه إلى ريموند السنجيلي مع مبلغ كبير من المال، مقابل الإبقاء على حياته وحياة حرسه الخاص، فقبل ريموند الشروط واحتل البرج، فخرج من المدينة تحت الحراسة، إفتخار الدولة مع حرسه، وانحازوا إلى الحامية الإسلامية بعسقلان [1]

ويقول (مجير الدين الحنبلي) في كتابه "الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل" أن الإفرنج قد لبثوا يقتلون في المسلمين بالقدس الشريف أسبوعا، وقتل في المسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألف نفس، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وسادتهم وعبادهم وزهادهم، ممن جاور في هذا الموضع الشريف، وغنموا ما لا يقع عليه الحصر، وجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا.

ثم حصروا جميع من في القدس من المسلمين بداخل المسجد الشريف، واشترطوا عليهم أنهم إن تأخرون عن الخروج بعد ثلاثة أيام، قتلوهم عن آخرهم، فشرع المسلمون في الإسراع والمبادرة في الخروج، فمن شدة ازدحامهم بأبواب المسجد قتل منهم خلق كثير لا يحصيهم إلا الله سبحانه وتعالى.

وأخذ الفرنجة من عند الصخرة ألفين وأربعين قنديلا من فضة، زنه كل منهم ثلاثة آلاف وستمائة، وتنورا من فضة وزنه أربعون رطلا بالشامي، وثلاثة وعشرين قنديلا من الذهب.

وهزم الأفضل بن بدر الجمالي أمير الجيوش بظاهر عسقلان أقبح هزيمة، وكان عند الإفرنج شاعر منتجع إليهم فقال: يخاطب ملك الإفرنج وأسمه صنجلي:

نصرت بسيفك دين المسيح ... فللّه درّك من صنجلي

وما سمع الناس فيما روى ... بأقبح من كسرة الأفضل

فتوصل الأفضل إلى ذبح هذا الشاعر [2]

(1) رنسمان مصدر سابق، ج1ص 403.

(2) مجير الدين الحنبلي مصدر سابق، ص 308.

المبحث الثاني

المطلب الأول: شهادات المؤرخين النصارى لمذبحة المسلمين في بيت المقدس

لم يختلف اثنان من المؤرخين على فظاعة الجرائم التي ارتكبها الصليبيون بحق المسلمين في بيت المقدس، لما ارتكبوه من أعمال فظيعة، وجرائم تقشعر لها الأبدان،ستبقى وصمة عار في جبين الصليبيين على مر العصور. ومن هذه الأقوال والشهادات ما يلي:

"يقول ريموند داجيلس: "الذي شهد الإحتلال: "إن الدماء وصلت في رواق المسجد حتى الركب"[1] يقول مكسيموس موند: "لم يوفر الصليبيون أحداً من سيوفهم ! لا الرجال، ولا النساء العجز، ولا من الأطفال، وظن المسلمون أن مسجد عمر يحميهم من الموت، ولكن ظنهم قد خاب إذ أن الصليبيين الحقوا بهم خيالة ومشاة، ودخلوا المسجد المذكور، وأبادوا كل من وجدوا فيه بحد السيف، وذم المؤرخون قسوة هؤلاء الجنود البربرية"[2]

وقال طوطح وبولس "كان المسيح قد علّم تلاميذه أن يحبوا أعداءهم، ولكن ما قاموا به من التوحش والهمجية في المكان الذي صلب فيه السيد المسيح، لما يندى له جبين المسيحي اليوم حياء وخجلا"[3]

وقال الأخوان شحاده ونقولا ألخوري "أمر الصليبيون الذين بقوا أحياء من العرب أن يجمعوا جثث موتاهم أكواما ويحرقوها بالنار. وبعد ذلك قتلوا هؤلاء أيضا، وهي قسوة يتبرأ منها الدين المسيحي الذي يدعّون أنهم جاءوا لنصرته، فضلا على أنها جعلت روح العداوة والانتقام تتأصل في قلوب المسلمين ضد مسيحي البلاد التعساء، فسببوا ضرراً عظيماً لهم، لم يكن أخف وطأة من أضرار ملوك الروم، فلو سلم مسيحيو هذه البلاد من هجمات ملوك الروم المتواترة، وغزوات الصليبيين المتعددة، وفظائع أولئك وهؤلاء بمسلمي البلاد، لعاشوا إلى جنب إخوانهم المسلمين عيشة راضية، لا يتخللها نكد ولا كدر"[4]

وجاء في تاريخ الكنيسة الرسولية الأورشليمية ص 71 – 72 عن الحروب الصليبية وفتح بيت المقدس، مطالعات كثيرة نقتطف منها النبذ التالية: والقول هنا إلى، (عارف العارف) في كتابه "المفصّل في

---

(1) داجيلس، ريموند، تاريخ العرب والتمدن الإسلامي ص 63.

(2) موند، مكسيموس، تاريخ الحروب المقدسة ص 172.

(3) طوطح وبولس سبق ذكره،ص 28.

(4) ألخوري، شحاده ونقولا، تاريخ كنيسة أورشليم الأرثوذكسية ص 70 .

تاريخ القدس" وهكذا نرى أنه كان من أهم الغايات الظاهرة للحروب الصليبية تخليص الأراضي المقدسة ! ولكن هناك غايات مكنونة في صدور الرجال، منها ما هو انتقام من العرب الذين امتد ملكهم إلى أسبانيا وفرنسا وبلاد اليونان وصقلية وغيرها، ومنها ما هو استئثار بالسلطة الزمنية والدينية. لقد أظهروا بعد فوزهم الباهر، ما كانوا يضمرونه، وشهد العالم من المظالم و المخازي ما لا يتفق مع لقبهم – الصليبيين – أظهروا بأعمالهم أن غايتهم بالاستيلاء على الأرض المقدسة أن يجعلوها بقعة لاتينية، وأن يلاشوا الأرثوذكسية منها بالكلية. متوسلين بجميع أنواع الحيل والخداع والاضطهادات التي يتورع البرابرة عن ارتكابها. لقد غرّوا بخمرة الانتصار، فاستيقظت فيهم روح الغلبة والاستعمار، واقترنت هذه بحب السفك والقتل والانتقام فصالوا في المدينة نهبا وقتلا، وكانوا يتعقبون المسلمين في كل مكان، ولم يحمهم المسجد المعروف بالصخرة، حيث فتكوا بهم، وذبحوا آلاف اللاجئين إليه من رجال ونساء وأطفال أبرياء هذا ما فعله ويا للآسف أصحاب الصليب المبشرون بالإنجيل، ودعاة الدين الذين يأمرون بالصفح والسلام.

وقال المؤرخ الفرنسي المسيو ميشو "كان المسلمون يذبحون مذبح الأنعام في الشوارع والمنازل، ولم يجد أهل المدينة محلاً أميناً يعتصمون به، فألقى بعضهم نفسه من فوق الأسوار، وازدحم الآخرون في القصور والمساجد والحصون، ولكن ذلك لم يجدهم نفعا، إذ أن الصليبيين حاصروا جامع عمر، الذي اعتصم فيه المسلمون، وجددوا تلك المناظر الوحشية التي تعد وصمة في جبين فرسان التيتون. إذ هجم الجنود على الهاربين، وأعملوا السيف في رقابهم من غير شفقة ولا رحمة. ولم يكن يسمع في تلك الساعة الرهيبة غير أنين الجرحى وحشرجة الموتى. كذلك وطئوا بخيولهم الجثث المكدسة أثناء مطاردة الهاربين، كما أحرقوا البعض حياً،ثم جاءوا بالذين قد لاذوا بالفرار ووضعوهم على جثث الموتى المكدسة، ومثلوا بهم أشنع تمثيل، ولم تكن تجدي في ذلك الموقف الدامي، دموع النساء ولا صراخ الأطفال ولا منظر البلد الذي صفح فيه السيد المسيح عن جلاديه. فإن هذه المناظر كلها ما كانت لتلين قلوبهم القاسية، وقد استمرت هذه المذابح اسبوعاً والذي نجا من سكان بيت المقدس عومل معاملة الأرقاء "[1]

وقال هنري أمرسن فوسديك[2]" لا شك بأن الصليبيين قد اقترفوا في الأرض المقدسة خطيئات لا تغفر مخالفين بذلك الأهداف السامية التي حفزتهم لافتتاحها، وأنهم قد انحطوا إلى درجة من التهتك الممزوج بالأنانية والحقد وسفك الدماء، فانقلب جهادهم إلى نهب، وسلب، وقتل وتدمير، حتى أنهم في أنطاكية، وهم في طريقهم إلى بيت المقدس، اقترفوا أفظع إثم دونّه التاريخ في سجل السكر والدعارة

(1) ميشو،مسيو، تاريخ العرب والتمدن الإسلامي، ج1 ص 239.

(2) Harry Emerson Fosdick, P.256

والفجور، إذ كانوا يضعون أجساد المسلمين في أسياخ حديدية، ويشوونها على النار ! وأما ما فعلوه في بيت المقدس، عندما احتلوه في 15 تموز 1099م فحدّث عنه ولا حرج. فقد أعملوا في المسلمين يد الذبح والتقتيل ثلاثة أيام صحاح، دون رحمة ولا روية، ولم يميزوا بين رجل وامرأة، أو بين صغير وكبير، وراحوا يتباهون أنهم قتلوا سبعين ألفا من المسلمين، وأنهم لم يغمدوا سيوفهم قبل أن تخمد نار الانتقام المتأججة في قلوبهم!

والغريب أنهم قاموا بهذه الفعال التي تقشعر لها الأبدان باسم المسيح، الأمر الذي جعل الشرق يستقبل صلاح الدين بالترحاب، ويعتبره منقذاً ورحيماً. وراح هذا الشرق يتنفس الصعداء، عندما طرد الصليبيين من الأرض المقدسة. وساد الاعتقاد بأنه ما كان ليصيبهم ما أصابهم، لولا أنهم يستحقون هذا المصير.

ومع ذلك فإن الناس راحوا يذكرون بالثناء والتمجيد، المعاملة الحسنة التي لقيها الصليبيون من صلاح الدين بعد تلك الآثام التي اقترفوها ! سيما عندما أمنهم على أموالهم وأنفسهم."[1]

يجمع المؤرخون من شتى النحل والملل على أن المجزرة الرهيبة التي قام بها، بما يسمى حراس القبر المقدس، ومن جاء لتحرير قبر السيد المسيح، والمسيح منهم براء، بأنها كانت مجزرة رهيبة أدمت قلوب العالمين، والتي ما زال صداها يتردد في الآفاق إلى أن تقوم الساعة بما ارتكبوه من فظائع بحق المسلمين وغيرهم من سكان هذه المدينة المقدسة، ولا أدل على هذا الخجل الذي أبداه مؤرخوهم من هول المشاهد التي تقشعر لها الأبدان والتي يتبرأ منها دين المسيح، لأن ما قاموا به لا يمت إلى المسيح ولا إلى المسيحية بصلة نهائيا، بل تعدى ذلك إلى الشجب والاستنكار والاستهجان والكل يجمع على أن هذه الفظائع لا يقوم بها إلا كل من تجرد من دين أو خلق أو مبدأ أو عقيدة لهول ما اقترفوه بحق الإنسانية.

أما بالنسبة لأعداد الضحايا الذين سقطوا في هذه المجزرة التاريخية، فمنهم من قدّر على أنها مائة ألف، ولكن الرأي الراجح في جميع هذه التخمينات، أن عدد القتلى كان حوالي سبعين ألفا في المسجد الأقصى المبارك، الذي التجأوا إليه وظنهم أن بيت الله يحميهم وأن يكون له اعتبار أو خشية في قلوب القساة الذين تجردوا من كل معاني الإنسانية ومفاهيمها، فلم يسلم الشبان أو الشيوخ ولا النساء أو الأطفال من هول هذه المذبحة، فقد استمر الوحوش في القتل والتنكيل مدة إسبوع كامل وهم يخوضون في دم الأبرياء حتى غاصت الخيل إلى ركبها في الدماء في ساحات المسجد الأقصى المبارك، فبقروا البطون وقطعوا الأوصال ومزقوا الأرجل والأيادي وغاصت الجثث في الأوحال حتى من أمرهم الغزاة

(1) العارف، المفصل، مصدر سابق، ص 156.

بجمع الجثث وإحراقها فقد كدسوهم عليهم وأحرقوهم فيما بعد.ولم ينج من هذه المذبحة إلا من كتبت له السلامة وأصبح رقيقا، يباع في سوق النخاسة.

أما الذين لم يدخلوا المسجد فقد التجأوا إلى القصور أو البيوتات أو الدهاليز علّهم يجدون لهم ملجأ، فكانت النتيجة أنهم ألقوا بأنفسهم من الأماكن الشاهقة أو شبابيك البيوت لهول ما جرى0

أما الهاربون فقد هاموا على وجوههم واتجهوا إلى الشام والعراق ووصل بعض المستنفرين إلى بغداد لينقلوا إلى الخلافة العباسة،التي كانت تحتضر، وتعالج سكرات الموت والتي لا حول ولا طول لها، في صد هذا العدوان أو مجرد رفع الظلم أو مساعدة المغلوبين، فقد وصلوا بغداد في شهر رمضان، وكان مع هؤلاء المستغيثين القاضي بدمشق أبو سعيد الهروي، واجتمع المستغيثون في مسجد بغداد الكبير، فبكوا وأبكوا من حولهم من هول ما سمعوا وأفطروا من عظم ما جرى عليهم.

ندب الخليفة ببغداد،وهو المستنصر بأمر الله ابو العباس أحمد العباسي، الفقهاء إلى الخروج في البلاد ليحرضوا الملوك على الجهاد، فخرج الإمام أبو الوفاء ابن عقيل الحنبلي، وغير واحد من أعيان الفقهاء وساروا في الناس فلم يفد ذلك شيئا، فإنا لله وإنا إليه راجعون0

ووقع الخلاف بين السلاطين السلجوقيين، فتمكن الإفرنج في البلاد، وانزعج المسلمون في سائر ممالك الإسلام بسبب أخذ بيت المقدس غاية الإزعاج، ثم استولى الإفرنج على أكثر سواحل البلاد في أيام المستعلي بأمر الله فملكوا يافا وقيسارية وغيرها من القلاع والحصون. وكانت محنة فاحشة[1] فعاد الوفد بدون أن يبلغ ألأرب ولم تقض له أي حاجة.

هنا ! لا بد لنا من وقفة في هذا السياق، إن اللافت للنظر في مجريات هذه الأحداث، أن ما جرى بالأمس يمكن أن يحدث اليوم، فما أشبه اليوم بالبارحة ! فكان السبب الرئيسي الذي أغرى الصليبيين لاقتحام هذه البلاد، واحتلال مدينة القدس، هو فرقة المسلمين وتشتتهم إلى دويلات متحاربة لا حول لها ولا قوة في صد العدوان، كما نحن في هذه الأيام، فإن أمتنا مشتته متشرذمة دويلات عدة لا حول لها ولا قوة في صد أي معتدي عليها، فنحن الآن وأمام التهديد الغربي لبلاد المسلمين، إننا نعيش استمرارية الحروب الصليبية، فما هو قادم على شرقنا الإسلامي أعظم، وما نكابد أشد وأقسى، وما يخططه لنا الغرب الحاقد تحت شعارات مختلفة ما هو إلا نمط جديد من الحملات الصليبية واستمرارها على هذه الأمة، فإن بقيت هذه الأمة على مثل هذا الحال فإن المحذور قادم لا محالة، وأننا في دائرة الخطر وتحت سهام المعتدين في كل لحظة وفي كل حين، وما هي إلا قضية وقت ليتربص بهذه الأمة أعداؤها، حتى ينشبوا مخالبهم في عقر دارها وتعود الأمة إلى سابق عهدها من الإحتلال والانحلال، فالله قد قيّض

(1) مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل،مصدر سابق، ج1 ص 308.

لأسلافنا من جمع الأمة وأعاد لها كرامتها وعزتها بعد أن فقدتها لمدة تسعة عقود، أما نحن في هـذه الأيـام أمام الخطر القادم، والله نسأل ألا نمتحن بهذا الامتحـان الرهيـب، فقـد ضـاعت القـدس وفلـسطين قـد سلبت وشعبها قد شتت تحت كل نجم في بقاع الأرض، ومن تبقى منهم في أوطانه يجرب فيه اليهود اشد وأقسى أنواع العذاب والتنكيل.00ولكن ! هل من مغيث أو مجيب، أو هل من قائـد كـصلاح الـدين أو نور الدين زنكي أو الظاهر بيبرس.00ليعيد لهذه الأمة وحدتها وقوتها وكرامتهـا لتعـيش كبـاقي الأمـم تحت الشمس تنعم بحريتها ودفء أوطانها خالية من أعدائها !0

فعودة هذه الأمة إلى عقيدتها، والعمل على توحيد صـفوفها والـتخلص مـن طواغيـت حكمهـا الذين زرعهم الاستعمار حراسا على مصالحهم، كل ذلك،كفيل بأن يدرأ عنها الخطر، ويبعد عنهـا كيـد المعتدين وتآمر المتآمرين.

بعد أن تم الإحتلال الـصليبي، أرسـلوا إلى البابـا في أوروبـا البـشائر بهـذا النـصر الكـبير علـى المسلمين، وكانت رسالتهم له أنهم استولوا علـى إيـوان سـليمان ومعبـده وأن الخيـل تغـوص في دمـاء المسلمين إلى الركب.

كان على رأس أولياتهم قيامهم بإدارة المدينـة كمـا يـشاءون، وحولـوا قبـة الـصخرة إلى كنيـسة وسموها (Templum Domini) وأعطى بلدودين جانبا منها إلى فرسان الهيكل.

في 22 تموز من عام 1099م عينوا غودفري دوبوين حاكما عليهـا، فـرفض أن يتخـذ التـاج علـى رأسه لأن السيد المسيح وضع تاجاً من الشوك على رأسه ورفض أن يسمي نفسه ملكاً وطلب أن يطلـق عليه اسم "حامي القبر المقدس " واتخذ من قبة الصخرة مقراً له وأنشأ فوق الصخرة مذبحاً وأحاطها بسياج من درابزين حديـدي، وكـسوها بالرخـام لأن الرهبـان كـانوا يقطعـون منهـا قطعـا صـغيرة، ويبيعونهـا للحجاج النصارى القادمين من أوروبا بمثقالها ذهباً ونصبوا فوق قبتها صليباً كبيراً.

أما المسجد الأقصى المبارك فقد اتخذوا منه مكاناً لأغراضهم المدنية وبنـوا في الجهـة الغربيـة منـه مخزنا لأسلحتهم كما استعملوا التسوية التي تحت المسجد إسطبلا لخيولهم.

هنا لابد من وقفة، بل من معجزة أغفلها الفرنجة وأنساهم الله إياها، تلك القدرة الإلهية علـى أن الفرنجة قد اتخذوا من المسجد الأقصى المبارك وقبة الصخرة المشرفة مكانا لتواجـدهم وقـصرا لحـاكمهم، بيد أن الحروف التي سطّرها المسلمون قبل دخول الفرنجـة والآيـات القرآنيـة وأعمـال الخلفـاء الـسابقين والتراث الحضاري الإسلامي لم يقم الفرنجة بتغيير، بل وربما بإرادة من الله (سبحانه وتعالى) تناسوا المسّ بهذه الأحرف أو طمس معالم هذه اللغة التي كانت موثقة علـى أبـواب وجـدران قبـة الـصخرة المـشرفة والمسجد الأقصى المبارك، وهذا قدر (الله سبحانه وتعالى)، فما أشبه هـذا الأمـر حـين قـام كفـار قـريش

بكتابة الوثيقة لمقاطعة المسلمين في شعب أبي طالب، ووجدوا في النهاية أن الوثيقة قد أكلتها الأرضة باستثناء كلمة باسمك اللهم.[1]

المطلب الثاني: وللشعر نصيب في مأساة القدس الشريف

الشعر ديوان العرب، فقد اعتاد شعراء العربية أن يسجلوا الأحداث والمناسبات التي تمر بها الأمة وشعوب المسلمين شعراً، لما تجود به عواطفهم وتزخر به أفكارهم، فقد كانت البلاد الإسلامية ومفرقة مفككة، حطم العدو إمارتها الواحدة تلو الأخرى، وطمع في أن يستولي على هذه البقعة من أرض الإسلام الممتدة من مصر إلى الشام، فتأثر الأدب في هذه الفترة بذلك، وامتاز الشعر بالحماسة المتدفقة للدعوة إلى وحدة الأمة الإسلامية، كما امتاز بحرارة العاطفة التي تدل على ما كان يعتمل في نفوس الشعراء من ألم شديد لاغتصاب الأراضي الإسلامية، ولما أصاب أهلها من تشريد وذبح وتقتيل، فكان للقدس الشريف نصيب من هذا الأدب العربي شعراً، فقيلت العديد من القصائد في هذه المناسبة، وكان أبرز هذه القصائد ما ورد على لسان الشاعر مظفر الأبيوردي أبياتا منها:

مزجنا دماء بالدموع السواجم ... فلم يبق منا عرضة للمزاحم

وشر سلاح المرء دمع يفيضه ... إذا الحرب شبت نارها بالصوارم

فأيها بني الإسلام إن ورائكم ... وقائع يلحقن الذرى بالمناسم

وكيف تنام العين ملأى جفونها ... على هفوات أيقظت كل نائم

فإخوانكم بالشام يضحى قتيلهم ... ظهور المذاكي أو بطون القشاعم

تسومهم الروم الهوان وأنتم ... تجرون ذيل الخفض فعل المسالم

وكم من دماء قد أبيحت ومن دمى ... توارى حياء حسنها بالمعاصم

وبين إختلاس الضرب والطعن وقعة ... يظل لها الولدان شيب القوادم

وتلك حروب من يغب عن غمارها ... ليسلم يقرع بعدها سن نادم

سللنا بأيدي المشركين قوا ضبا ... ستعمل منهم في الطلى والجماجم

يكاد لهن المستكن بطيبة ... ينادي بأعلى الصوت يا آل هاشم

أرى أمتى لا يشرعون إلى العدى ... رماحهم والدين واهي الدعائم

---

(1) أبو صالح، محمد ذياب، مصدر سبق ذكره ص 53 .

ويجتنبون النار خوفا من الردى ولا تحسبون العار ضربة لازم
أترضى صناديد الأعارب بالأذى وتغضي على ذل صم الأعاجم
فليتهم إذا لم يذودوا حمية عن الدين شنوا غيرة للمحارم
وإن زهدوا في الأجر إذ حمي الوغى فهلا أتوه رغبة في المحارم

ففي هذه الأبيات دعوة عميقة للوحدة والذود عن حرمة الإسلام، ومن الشعر الإسلامي المؤثر في الحث على الوحدة والدفاع عن الإسلام.

أحل الكفر بالإسلام ضيما يطول عليه للدين النحيب
فحق ضائع وحمى مباح وسيف قاطع ودم صبيب
وكم من مسلم أمسى سليبا ومسلمة لها حرم سليب
وكم من مسجد جعلوه ديرا على محرابه نصب الصليب
أمور لو تأملهن طفل لطفل من عوارضه المشيب
أتسبى المسلمات بكل ثغر وعيش المسلمين إذا يطيب
أما لله والإسلام حق يدافع عنه شبان وشيب
فقل لذوي الأبصار حيث كانوا أجيبوا الله ويحكم أجيبوا

فهيأ الله سبحانه وتعالى – لهذه الأمة قادة شيّدوا صرح الإسلام من جديد، فالتف الناس حولهم، وكان من أبرزهم عماد الدين زنكي الذي استطاع أن يخلّص إمارة الرها سنة 535 هـ من أيدي الفرنجة، ويوحد معظم أرض الجزيرة الفراتية والشام، في ظل حكومة واحدة يتولى زعامتها وتدين بولائها للعباسيين.

ثم جاء نور الدين محمود المجاهد المخلص، ووجه ضربة سريعة للفرنجة، استعاد فيها الرها، حيث احتلها الفرنجة مرة أخرى عقب وفاة عماد الدين، ويعبر بن القيسراني عن إيمانه بقوة السلاح سبيلا لاستخلاص الأرض من الغزاة، حين هنأ بقصيدة له الوزير جمال الدين أبي جعفر محمد بن علي الأصبهاني بفتح الرها الثاني على يد نور الدين عام 541هـ وذلك حين يقول.

إلى كم يغبّ ملوك الضلال سيفا بأغباقها كاملا
فلا تحفلن بصول الذئاب وقد زأر الأسد الباسل

هـــو أســـيف إلا تكـــن حـــاملا لبزتـــــه بـــــزك الحامـــــل[1]

وإذا استطردنا في طرح الشعر، والحث على المقاومة المسلحة لتخليص البلاد والعباد من المحتل، كما أن الشعراء أنشدوا أشعارهم يحثون المسلمين على التمسك بالوحدة الوطنية والدينية، إضافة إلى حثهم على إتباع أسلوب المقاومة المسلحة ضد الغزاة، لأنهم أي الغزاة، لا يفهمون إلا لغة القوة واستعمال السلاح، وهذا ما تحقق فعلا حين، اعتمد المسلمون على وحدتهم والعودة إلى دينهم وحمل السلاح لعدوهم كان النصر المؤزر نصيبه

المطلب الثالث: معارك المسلمين على تخوم القدس

من المعلوم أن المسلمين لم يستكينوا على ضيم، وأنهم لن يهدأ لهم بال، أو يستقر لهم قرار،طالما أن القدس أصبحت في قبضة المحتل الصليبي، فكيف لا يواصلون مباغتاتهم للعدو الذي جثم على أقدس مقدسات المسلمين في فلسطين، وأعز أماكن العبادة لديهم، فكانت الاستعدادات على قدم وساق، وقد اتخذ المسلمون من مدينة عسقلان الساحلية قاعدة لهم لمناوشة الصليبيين في القدس، ففي نفس العام الذي جرى فيه الإحتلال الصليبي لهذه الديار فقد تجمع المسلمون بقيادة الأفضل الفاطمي في مدينة عسقلان التي كان الأسطول الفاطمي يجوب سواحل فلسطين ويتخذ منها قاعد له. إلا أن الصليبيين الذين احتلوا بيت المقدس في 17 يوليو من عام 1099م قاموا وفي نفس العام أي في شهر أغسطس سنة 1099م بمهاجمة حامية عسقلان، فسقطت بأيديهم وبذلك سقط أهم موقع إستراتيجي للفاطميين في فلسطين، وأصبحت الطريق مفتوحة أمام الصليبيين للعبور نحو مصر، متى سنحت لهم الفرصة، وبهذا النصر استطاعوا أن يوطدوا أركان حكمهم لمدينة القدس، وأن تبقى بقية المدن الفلسطينية التي لم يقتحمها الصليبون تحت الضربة الصليبية، حيث قام أصحاب هذه المدن بدفع إتاوة إلى غودفري وقدرها خمسة آلاف دينار سنويا، لقاء السماح لهم بزراعة أرضهم والبقاء في ديارهم، وبهذا فقد أمن الجبهة الغربية، أما الجبهة الشرقية المتمثلة بشعار شرقي الأردن فقد أرسلوا له بالهدايا من الحبوب وغيرها، وبهذا فقد أمن الجبهة الشرقية أيضا. إلا أنه عاد وأغار على المدن الساحلية واحتلها جميعا.

توفي جودفري وأصبح مكانه بلدوين حيث دالت له الممالك المجاورة، ففي عام 1100م أخذ الأمراء الصليبيون يعلنون الولاء له، وبهذا فقد تحولت إمارة القدس إلى مملكة لاتينية، مدت أذرعها من سواحل البحر الأبيض غربا إلى شرقي الأردن شرقا، ومن بيروت شمالا إلى العقبة جنوبا، ولهذا فقد تحقق للصليبيين إنشاء أول دولة لاتينية لهم في القدس الشريف.

---

(1) الشخشير، محمود تيسير، يوم القدس ملخصات بحوث الندوة الثالثة، نابلس: جامعة النجاح الوطنية سنة 1997م ص، 46.

وفي الطريق المؤدي إلى القدس على لسان سيولف الولشي عام 1102م زار القدس بعد مجيء الصليبيين ببضع سنين أي في عام 1102 م الرحالة سيولف الولشي وذكر في كتابه أنه قضى في طريقه بين يافا القدس يومين، وقد وصف وعورة الطريق وأخطارها، فهي وعرة لأنها جبلية، وخطرة لأن بعض السكان يرابطون في الطريق، هذا فضلا على أنه يوجد ثمة كثير من الحيوانات المفترسة، وويل للذين يقتلون على الطريق، فإنهم لا يجدون من يجرؤ على دفنهم، إذ أن من يتأخر عن القافلة ليدفن رفيقه يعرض نفسه لخطر القتل والاغتيال من العرب الذين أصبحوا يكرهون المسيحيين كرها شديدا، بسبب ما فعله الصليبيون بهم في بيت المقدس"[1]

ماذا نقرأ في هذا الوصف في هذه المرحلة تحديداً؟!

إن المتتبع لمجريات الأمور وبما في هذا النص من كلمات خلف السطور، يدرك تماما أن أهل البلاد الأصليين، أن الفلسطينيين تحديداً لم يستسلموا نهائياً للصليبيين، ولم يرفعوا الراية البيضاء لهم ويديلوا لهم بالتبعية التامة، وينسجموا أو ينضووا تحت إمرتهم من ناحية، ومن ناحية ثانية، فإن السيطرة الصليبية لم تكن متوفرة على جميع أرجاء البلاد، ولم يبسط الصليبيون أمنهم إلاّ بالقوة وداخل أسوار المدينة المقدسة، التي أبادوا أهلها بحد السيف، فالأمن الوطني كان مفقوداً خصوصاً خارج المدن، وعلى الطرقات، فكان الأمن بيد أهل البلاد الذين لم يتجرأ الصليبيون السيطرة عليهم،وكانوا يتخوفون منهم فلا يجرؤون على السير في الطرقات لوحدهم إلا بقوة تحميهم وبحراسة مشددة ترفدهم.

المطلب الرابع: الراهب دانيال شاهد على القدس في عصره عام 1106م

"إن بيت المقدس مدينة واسعة يحميها 4أربعة جدران قوية، ومبنية على هيئة مربعة، حيث أن جهاتها الأربع لها نفس الطول، ويحيط بها كثير من الأودية القاحلة والجبال الصخرية، والمنطقة خالية من الماء بشكل مطلق، حيث لا يجد المرء نهراً أو آباراً أو ينابيع قرب بيت المقدس، باستثناء بركة سليمان (Pool of Siloam) لذلك ليس أمام سكان المدينة، والماشية شيء يستخدمونه سوى ماء المطر، وبالرغم من ذلك فالحنطة تزدهر في تلك الأراضي الصخرية التي ينقصها المطر، والحمد لله على فضله ورحمته حيث أن محاصيل القمح والشعير ممتازة، وعند بذار مكيال واحد نستطيع الحصول على مائة وتسعين عند الحصاد، أليست بركة الله تخيم على هذه الأرض المقدسة؟!وفي المناطق المجاورة لبيت المقدس تكثر أشجار الكرمة وأشجار الفاكهة،وأشجار التين والزيتون وأشجار الخروب وعدد لا نهاية له من مختلف الأشجار والنباتات، وعلى جبل الزيتون، وفي الجهة الجنوبية منه وبالقرب من موقع صعود السيد المسيح

(1) p.8 The pilgrimage of Saewulf. translated Rev. The Lord of Bishop. of Clifton

هناك كهف عميق يحتوي على ضريح القديس بيلادجيا (Saint Pelagia) المحظي، وهو رجل متقشف مستعد أن يعيش هناك.[1]

المطلب الخامس: حكام القدس اللاتين

ليس هدفنا في هذه العجالة من تاريخ بيت المقدس، أن نطيل الشرح ونتتبع من حكموها، وكيف كان الوضع آنذاك من الحكم والأحداث التي كانت في بيت المقدس، إبّان الإحتلال الصليبي لهذه المدينة المقدسة، بل رأينا من الواجب علينا أن نعرّج على جزء يسير من حكم الصليبيين لها.

إنها مدينة لم يستكن أهلها ولم يستسلموا للمحتل الغاصب، وما فتئوا كل يوم وليلة في إعداد العدة والتهيؤ ليوم التحرير من الصليبيين.

حكم مدينة القدس منذ عام 1099 م حتى عام 1291م خمسة وعشرون حاكما صليبيا ابتداء من غودفري دي بويون وانتهاء بهنري ويمكننا هنا أن نستعرض أسماءهم في هذه العجالة من هذا البحث لا أن نخوض في تاريخهم وسرد حياتهم وأعمالهم، لأنه ليس هذا من شأننا. وهم:

.1	جودفري دو بويون	1099م – 1100م
.2	بلدوين الأول	1100م –1118م
.3	بلدوين الثاني	1118 - 1131م
.4	ميلسنده وفولك أنجو	1131م – 1144م
.5	ميلسنده وبلديون الثالث	1144م – 1152م
.6	بلدوين الثالث (وحده)	1152م – 1162م
.7	آموري الأول	1162م – 1173م
.8	بلدوين الرابع	1173م - 1185م
.9	بلدوين الخامس	1185م – 1186م
.10	سيبل وغاي دو لوزغنان	1186م – 1190م
.11	غاي دو لوزوغنان (وحده)	1190م –1192م
.12	يزابلا وهنري أوف شامبان	1192م –1197م

(1) دبليو ويلسون، الكولونيل السير سي 0، رحلة الحاج الروسي "دانيال الراهب في الديار المقدسة "1106-1107م نقلها إلى العربية وعلق عليها الدكتور سعيد البيشاوي وداود إسماعيل أبو هدبه ط1 1992م ص

.13	إيـــزابلا وأمـــوري الثـــاني	1197م – 1205م
.14	إيـــــزابلا (وحـــــدها)	1205م
.15	مـــــــــــــاري	1205م – 1210م
.16	مـــاري وجـــون دوبـــرين	1210م- 1212م
.17	يولانـــده وجـــون دوبـــرين	1212م –1225م
.18	يولانـــــده وفردريـــــك	1225م- 1228م
.19	قـــــونراد وفردريـــــك	1228م –1243م
.20	قـــــونراد وحـــــده	1243م – 1254
.21	قـــــــــــونرادين	1254م –1268م
.22	هـــــــــــوغ	1269م –1277م
.23	شارل أوف أنجو (يطالب بـالعرش)	1277م –1284م
.24	جـــــــــــون	1284م –1285م
.25	هنـــــــــــري	1285م- 1291م([1])

لقد شملت منطقة نفوذ مملكة القـدس في عهـد الـصليبيين مـساحة طولهـا أكثـر مـن ألـف ميـل وعرضها حوالي خمسين ميلا أيضا.فقد كانت تقع على شـاطيء البحـر الأبـيض المتوسـط مـن إنطاكيـة شمالا، حتى حدود مصر جنوبا ومن الغرب البحر الأبيض المتوسط ومـن جهـة الـشرق شـرقي الأردن وقلعة الكرك، وعلى الرغم من اتساع هذه الرقعة مـن ارض والمـواني، إلا أنهـا لم تـشعر يومـا بالراحـة والاستقرار، وذلك لأنها كانت عبارة عن جزيرة في خضم بحر كبيرمن الوطن العربي الكبير الذي يحدق بها من كل الجهات، سواء في مصر أو الشام.

إن هذا الوضع كان وضعاً احتلاليا صرفاً لم يغير في السكان الأصليين، لا من الناحية الفكرية أو الأيدلوجيه، أو العقدية أو التربوية أو العلمية أو غير ذلك، بل كان هم هذه المملكة هو جباية الـضرائب من المواطنين الأصليين تحت قهر السلاح والتبعيـة والكراهيـة، وأن الأمـن والاسـتقرار كانـا مفقـودين، وذلك لأن أهل البلاد وما يحيط بهم من ممالك إسلامية، كانت تتهيأ الفرص، وتعد العدة لإعـادة تحريـر

(1) عارف العارف، المفصل،مصدر سابق، ص 162.

بيت المقدس من هؤلاء الغزاة، إلى أن سنحت الفرصة المواتية، وكان النصر المؤزر الذي كنس الإحتلال وذيوله ولم يبق له في ديار المسلمين، أي أثر وهذه سّنة الكون ومصير المحتل والعاقبة للمتقين.

فما أشبه اليوم بالبارحة، وأن الواقع الذي تعيشه فلسطين في هذه الأيام بعامة وبيت المقدس بخاصة، لا يختلف كثيراً عن الأمس وعن الإحتلال البغيض الذي عاشته أمتنا، وها هي الأمة اليوم كما كانت بالأمس، وعلى نفس خط الموازاة من حيث الفرقة والتشرذم والصراعات الداخلية، وأن الخطر آت من مكمنه السالف، ولا عزة ولا كرامة لهذه الأمة إلا بما صلح به أولها، حتى نكون على مستوى الحدث وصد جسامة المؤامرة، والله نسأل أن يوفق قادتنا ويوحد شعوبنا ويجمع على الحق كلمتنا.

المطلب السادس: الوضع الاجتماعي لنظام الحكم الصليبي في القدس

تألف المجتمع في مدينة القدس في هذه الفترة من:

1- الطبقة الحاكمة وهم الملك والأعيان.
2- رجال الدين (الكنيسة).
3- الإرساليات.
4- النصارى.
5- عامة الشعب. وهم من المسلمين وعليهم الغرم وللحكام الغنم فكانت تجبى منهم الضرائب ويدفعون الجزية وكان جلهم من المزارعين.وكانت حالة المسلمين في أسفل دركة من دركات العبودية، وحلت المحاكم الاستبدادية محل المحاكم النظامية، وعرض الرجال والنساء في السواق والحارات مصفدين بالسلاسل.

أما بالنسبة إلى الفرق العسكرية التي كانت تجوب البلاد فهي:

1- الداوية – أطلق هذا الاسم على جمعية فرسان الهيكل Templiersأسست سنة 1119م لحماية الحجاج المسيحيين القادمين من أوروبا عن طريق البحر من يافا إلى القدس،فهم أوقفوا أنفسهم للجهاد ضد المسلمين، ولم يتزوجوا يستخدمون القوة ولا طاعة عليهم لأحد،
2- الإسبتارية – وهم جمعية فرسان المستشفى، أسست هذه الجمعية سنة 1099م وكانت مهمتهم إيواء المرضى والحجاج النصارى.

اتخذت هاتان الفرقتان من المسجد الأقصى المبارك نزلا لها، ومكانا لتخزين الأسلحة ضد المسلمين، ومن الجدير بالذكر أن الفوارق الاجتماعية والطبقية كانت ظاهرة واضحة للعيان، فلم يؤثر الصليبيون على سكان البلاد الأصليين، سواء من حيث اللغة، فقد احتفظ كل بلغته وعاداته وتقاليده، وبقيت اللغة العربية هي السائدة بين المواطنين العرب، والزي العربي هو المميز عن غيره من لباس

الصليبيين، الذين كانوا يتباهون بأزيائهم الغربية، وكان هذا من أبرز العوامل التي كانت تميز بين الفئتين. كما أن الأوروبيين قد تأثروا بالشرق وعاداته وتقاليده ومعارفه وصناعاته، حيث كانت أوروبا كما هو معلوم تغط في سبات عميق، وهمجية ظالمة، تمثلت بطبيعة الإحتلال الصليبي لهذه الديار، وما قاموا به من فظائع يندى لها جبين البشرية، وما زال الأوربيون يخجلون من ذكرها حتى وقتنا الحاضر، لأنها وصمة عار في جبين من يدعي بأنه عالم متحضر.

استفاد المحتلون من بلاد المسلمين ما ورثه المسلمون من حضارة عريقة ومن تاريخ وأدب وعلم وطب وجغرافيا وغير ذلك من العلوم الإنسانية، فنقل الأوروبيون من الشرق المسلم العلوم وترجموها إلى لغاتهم المختلفة ودرسّوها في جامعاتهم كما أخذوا من العرب الترقيم – الأرقام الهندية – التي كانوا يسمونها بالأرقام العربية واستفادوا أشياء كثيرة من أمة الشرق نقلوها إلى بلادهم واستفادوا منها في حياتهم ومعاشهم.

المطلب السابع: بداية النهاية للوجود الصليبي في مملكة بيت المقدس

ذكرنا سابقاً، انه قد حكم القدس من ملوك الصليبيين اللاتين خمسة وعشرون ملكا، وكان عدم الاستقرار والحروب الجانبية مع المجاورين من العرب والمسلمين سمة هذه الحقبة، لأن أهل البلاد الأصليين شعروا بما ارتكبه الصليبيون من فظائع في بلادهم، وان الصليبيين ليسوا أهل البلاد، بل أنهم غزاة. كان من أبرز الحكام الصليبيين الذين سلكوا إستراتيجية جديدة هو فولك0وقد تجلت الأعمال التي قام بها بما يلي:

أولا: حرص فولك على إتباع سياسة جديدة، لماذا !؟ لأنه بدأ يشعر فعلا بخطورة الوضع الذي يحيط به من كل جانب، حيث أن مملكته تشكل جزيرة في خضم بحر متلاطم الأمواج من الأمة التي تحيط بها من كل حدب وصوب، ولهذا كان لا بد له من منهجية يبني عليها وجوده ويحافظ على كيانه الذي ورثه خوفا من انهيار هذا النظام القائم على القمع واستعباد أهل البلاد الأصليين.

آثر هذا الملك سياسة التفاهم، بدلاً من سياسة الحرب مع جيرانه المسلمين في دمشق، كما أنه حث نبلاء مملكته على انتهاج نفس الأسلوب مع المسلمين، واستبدال هذا النهج بدل لغة الحرب التي عانت منها مملكته الكثير.

ثانيا: وعلى الرغم من تتبعه لهذه السياسة، فقد اتخذ أسلوباً محاذياً لهذا الإجراء، حيث أخذ بتوطيد حكمه وتعزيز تواجده العسكري على جميع حدود مملكته، فقام بتشييد القلاع والحصون وشق الاستحكامات على طول الجبهات المحاذية لمملكته في الجانب الجنوبي

الغربي، تخوفاً من الجانب المصري المتمثل في الفاطميين، حيث كانت الغارات تشن عليه من عسقلان، التي كانت القاعدة الأمامية المتقدمة للفاطميين، وقد أسس في هذا الجانب أسس في هذا الجانب الحصون التالية:

1- **حصن يبنا**: حيث تقع يبنا على بعد خمسة عشر كيلومتراً إلى الجنوب الغربي من الرملة، والذي يتحكم في الطرق المؤدية من عسقلان جنوبا إلى يافا والرملة شمالا.

2- **حصن تل الصافي**: يقع هذا الحصن إلى الجنوب من يبنا ليكون في قلب البلاد لردع الهجمات المصرية المتوقعة عن القدس.

3- **حصن بيت جبريل**: ويقع هذا الحصن على مشارف مدينة الخليل، التي تعتبر بحق بوابة القدس.

إن المتتبع لبناء هذه الحصون والقلاع يجد أنها تشكل حاجزاً إستراتيجياً أمام المد الفاطمي القادم من مصر،ومن هنا مكمن الخطر على مملكته، وكان الحجاج الصليبيون القادمون من أوربا تنزل بهم السفن في ميناء يافا الساحلي، ومن ثمّ يتجهون إلى القدس، فكان لزاما عليه وفي مثل هذا الوضع غير المستقر، أن يؤمن طريق القادمين، حيث قام بتشييد حصن عند قرية بيت نوبا على مشارف القدس لحماية الحجاج الصليبيين.

ثالثا: حتى يسيطر على الطريق المؤدي من دمشق إلى عكا، قام ببناء حصن قلعة صفد. كما أنه بنى قلعة حصينة في أسدود لمراقبة تحركات الأسطول الفاطمي في عسقلان.

أما من الناحية الشرقية، فقد شيّد حصن الكرك والشوبك وقلاع العقبة ومعان والقويرة، واستطاع بهذا الإجراء أن يسيطر على حقول القمح التي تزرع في الضفة الشرقية لنهر الأردن، لتكون سلة غذاء لمملكته، ولإخضاع القبائل العربية في شرقي الأردن الذين انصاعوا لحكمه.

هكذا: فإن فولك استطاع أن يبني سياسة دولته اللاتينية، بإنشاء القلاع والحصون وبناء الخنادق، والاستحكامات على جميع حدود مملكته،للحفاظ على كيانها، وتثبيت دعائمه فيها. وبهذا فقد استطاع أن يؤمن حدوده الخارجية بأمرين وهما:

أولا: إتباع سياسة المهادنة واللين والمصالحة مع جيرانه الذين كان يتخوف منهم.

ثانيا: تثبيت الوضع الداخلي لمملكته، وذلك بإرساء قواعد الحكم الداخلي على شعبه أولا، ثم بإنشاء القلاع والحصون والاستحكامات على جميع الثغور، فكان هذا الحرص المتزايد نتيجة لشعوره بأنه محتل وأنه ليس صاحب البلاد الأصلي، وأنه لا بد وان هناك مطالبة من أهل البلاد الشرعيين بإعادتها إلى أصحابها الأصليين يوما ما مهما طال الزمان،وهذه سنّة الكون وطبيعة الحياة،وأن ما نشهده في أيامنا هذه من إتباع نفس الأسلوب وبهذه الوسيلة للكيان الصهيوني المغتصب لفلسطين، ما هو إلا نفس المنهجية، سواء كان ذلك

بمحاولة استرضاء بعض الأنظمة المحيطة بهذا الكيان الصهيوني، واستمالته وفتح بعض القنوات معه من صلح مزيف أو تطبيع للعلاقات من ناحية، أو تقوية جبهته الداخلية وشحنها بالعتاد والسلاح وبناء ترسانة عسكرية متفوقة، حتى يبقى محافظا على وجوده، ولكن هيهات؟ بل هو إلى حين ! لأن هذا الكيان وإن طال مداه سيكون مصيره إلى زوال، وإعادة الحقوق إلى أصحابها الشرعيين، وليست إسرائيل بأكثر عمقا أو إستراتيجية أو مد بشري أو جغرافي أو مادي من أوروبا الصليبية، التي سيطرت على بيت المقدس وأكناف بيت المقدس، وكان مصير الإحتلال الصليبي إلى الزوال والاندثار.

إن الإجراءات العسكريةن والتحالف الخارجي، حافظ ولو إلى حين، على مد عمر هذه المملكة إلى أجل كانت له نهاية. وكانت نهاية هذا الحكم بنهاية هذا الحاكم، حيث كبا به جواده على بلاط شوارع عكا، وعاجله المنون، وكانت نهايته عام 1143 م وقد خلفه في الحكم زوجه مليسند،علماً بان مملكة القدس، كانت تبسط نفوذها على بقية الممالك الصليبية، لكن بعد موته لم ينصع لهذه الحكم مليسند وابنها الصغير أمراء المقاطعات الشمالية، بل ولا فض النزاعات التي نشبت بين أمراء الشمال، وبهذا فقد فقدت السيطرة على جميع أنحاء البلاد، التي كانت محتلة في عهد زوجها،فبدأ الانهيار والضعف للوجود الصليبي في الشرق الإسلامي.

المبحث الثالث

القدس في كتب الرحالة والمؤرخين

المطلب الأول: القدس على لسان أحد المؤرخين الغربيين:

الرحالة الألماني ثيودوريتش: قال "إنها مدينة جبلية، لكن صخورها جميلة، فيها الأبيض والأحمر والرخام المتعدد الألوان، وكلها صالحة لأخذ حجارة البناء، أما حيث يتجمع بعض التراب بين الصخور فتنمو جميع أنواع الفاكهة، وتكون الجبال مكسوة بالكروم والتين والعنب والزيتون، وأما الأودية، فتملأها الحبوب والبساتين، أكثر شوارعها مبلطة بألواح كبيرة من الحجارة، وهي مسقوفة بعقود حجرية، فيها نوافذ يدخل منها النور، وبيوتها مبنية من الحجر الجميل النقش، وأسطحها مستوية، وليس لديهم أي ماء سوى ماء المطر الذي يجمعونه في آبار محفورة لهذه الغاية، والخشب غالي الثمن في القدس لأنه يأتيها من مكان بعيد ألا وهو لبنان"[1]

وهناك وصف إلى أحد المعاصرين الصليبيين قال فيه "إن عهد فولك أوف أنجو لمملكة بيت المقدس وللقدس كان أوفر ثروة وغنى من أي حكم إفرنجي عرفته هذه المدينة، كانت تزدحم في القدس الكنائس بنقوشها البديعة ومداخلها الجميلة والبنايات الفخمة والأديرة الواسعة والنزل المريحة وغيرها، فضلا عما كان يملكه النبلاء والمزارعون من مبانٍ وبيوت.

كان المزارعون المسلمون يأتون للمدينة وهم في ألبستهم الزاهية، ومعهم منتجاتهم الزراعية، من خضار وثمار محملة على ظهور الجمال والحمير. وأن الأمن المتوفر في البلاد أدى إلى توسيع نطاق التجارة، فكان تجار البلدة يأتون بالفرو من سيبيريا وبالخيل من سوريا وقبرص والعبيد من روسيا وأرمينيا والحرير من الصين وغيرها، باللؤلؤ من الخليج العربي، والزجاج من الخليل، وبريش النعام من الصحاري، وبالآجر وبالخزف الثمين المطلي بالمينا من دمشق وإنطاكية وطرابلس وغيرها، من الخيرات التي ترد إلى المدينة من جميع أنحاء المعمورة.

كانت الشوارع المبلطة مكتظة بالأمراء، والنبلاء، والجنود بألبستهم الزاهية، وبغيرهم من الجماهير التي تنتسب إلى مختلف الشعوب واللغات.

---

(1) رو اد الشرق العربي، مصدر سابق، ص 162 .

كان للاتين خمس عشرة كنيسة في القدس، وتسع على جبل الزيتون، فضلا عما كان لغيرهم من الكنائس، وكانت الشوارع المحيطة بكنيسة القيامة أكثر شوارع المدينة وأسواقها ازدحاما وحركة، ففيها تباع التوابل والحرائر والفضيات واللحوم والحبوب والأعشاب والعقاقير وغيرها "[1]

المطلب الثاني: القدس في كتب الرحالة المسلمين

كان يتردد على بيت المقدس في العهد الصليبي مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة، بن مرشد بن علي المقلد بن نصر بن منقذ الكناني، ألف كتاباً اسماه: (كتاب الاعتبار) وقد جاء في الصفحة 99منه ما يلي:

"كل من هو قريب العهد بالبلاد الإفرنجية أجفى أخلاقاً من الذين قد تبلدوا وعاشروا المسلمين، فمن جفاء أخلاقهم قبحهم الله أنني كذبت إذا زرت البيت المقدس دخلت إلى المسجد الأقصى، وفي جانبه مسجد صغير قد جعله الإفرنج كنيسة، فكنت إذا دخلت المسجد الأقصى وفيه الداوية، وهم أصدقائي يخلون لي ذلك المسجد الصغير أصلي فيه، فدخلته يوما، فكبرت ووقفت في الصلاة، فهجم عليّ واحد من الإفرنج، مسكني ورد وجهي إلى الشرق. وقال: كذا صلي: فبادر إليه قوم من الداوية، أخذوه وأخرجوه عني. وعدت أنا إلى الصلاة فأغلفتهم. وعاد هجم علي ذلك نفسه. ورد وجهي إلى الشرق. وقال: كذا: صلي. فعاد الداوية، دخلوا إليه وأخرجوه، واعتذروا إليّ وقالوا: هذا غريب، وصل من بلاد الإفرنج هذه الأيام، وما رأى من يصلي إلى غير الشرق. فقلت حسبي من الصلاة، وخرجت"

"وليس عندهم من النخوة والغيرة. يكون الرجل يمشي هو وامرأته، يلقاه رجل آخر. يأخذ يد المرأة، ويعتزل بها، ويتحدث معها، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث، فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى!"[2]

---

(1) Jerusalem and Crusades P Blyth88.

(2) عارف العارف، المفصل، مصدر سابق، ص 167.

الفصل الثالث

المبحث الأول

وحدة العالم الإسلامي

المطلب الأول: بوادر عودة العالم الإسلامي إلى الوحدة

كما هو معلوم أن العالم الإسلامي إبّان الحروب الصليبية كان قد أصابه من التمزق والتشرذم الأمر الكبير، فالشرق الإسلامي كان في صراع خطير بين العديد من الجيوش الإسلامية المتحاربة، وكانت الخلافة العباسية في النزع الأخير من عمرها، حيث كانت تتبع هذه البلاد إلى المذهب السني،أما على الجانب الغربي، فقد كانت الخلافة الفاطمية التي كانت تتبع المذهب الشيعي، فكان الصراع محتدماً بين الفئتين، مما سهّل مهمة الصليبيين ضد المسلمين.

يجدر بنا أن نشير إلى أن حالة العالم الإسلامي في الشرق أيضا، كانت في أضعف صوره، لما كان يعتريها من صراعات وحروب داخليه، وكان الخليفة العباسي المستظهر يستعين بالسلاجقة الذين كثر بينهم الصراع أيضا.

ففي عام 494هـ كانت الحرب بين السلطان السلجوقي بركيارق وأخيه السلطان محمد، وفي شهر جمادى الآخرة، كان ألمصاف الثاني بين السلطانين الأخوين، حيث انهزم السلطان بركيارق، وهرب من وجه أخيه السلطان محمد، وتنقل من أصبهان إلى خوزستان وإلى عسكر مكرم، وسار إلى همدان إلى أن استطاع أن يجمع ما يربو على الخمسين ألفا من المقاتلين، ونازل أخاه محمدا الذي لم يكن معه أكثر من خمسة عشر ألفا، ثم هزمه واستمر في فتح المناطق المجاورة، إلى أن وصل به المقام إلى أن أرسل إلى بغداد لأخذ أموال مؤيد الملك.

وتعود الكرّة بين الأخوين السلطانين السلجوقيين، مرة أخرى، حيث يلتقي السلطان محمد بأخيه لأمه السلطان سنجر في خراسان فيسيرا معا إلى دمغان ويخربانها، ويهرب أهلها إلى قلعة كردكوه فيخرب عسكرهما ما قدروا عليه من البلاد، فيعم الغلاء تلك الأصقاع حتى أكل الناس الميتة والكلاب وأكل الناس بعضهم بعضا [1]

(1) ابن الأثير،مصدر سابق، ج 9 ص 32 .

أما إذا أسهبنا في هذا السرد لما كان ينتاب العالم الإسلامي في الجبهة الشرقية فإن المقام بنا يطول، بل هذا نزر يسير مما كان عليه الحال ومما هيأ الفرصة المناسبة للصليبيين بأن يدخلوا البلاد الإسلامية ويسيطروا عليها خاصة فلسطين.

يذكر ابن الأثير هذا الحال قائلا "فعم الفساد، وصارت الأموال منهوبة والدماء مسفوكة والبلاد مخربة والقرى محرقة والسلطنة مطموع فيها محكوما عليها، وأصبح الملوك مقهورين بعد أن كانوا قاهرين وكان الأمراء الأكابر (أمراء الإقطاع) يؤثرون ذلك ليدوم حكمهم وانبساطهم"[1]

احتدم الصراع كثيرا بين الأخوة إلى أن تم الصلح بين الأخوة فأصبح بركياروق حاكما لفارس وبغداد وتخلى لأخويه عن الأطراف الغربية كديار بكر والجزيرة والموصل والشام ومن ضمنها بيت المقدس. بيد أن الشعور بالخطر الصليبي وما آلت إليه البلاد من وضع مزري واستبداد الصليبيين بها. كان لا بد أن هناك تغير في الموقف الإسلامي واتخاذ تدابير جديدة لمواجهة هذا الخطر، وكان أشبه بالمعجزة في هذه المرحلة ولا بد من توحيد الأمه0 فكان أول المبادرين إلى هذا الشأن السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي الذي قام بمحاولة لجمع شتات الأمة وتوجيه حملاته إلى الصليبيين في بلاد الشام، لكن العبء كبير والحمل ثقيل سواء من الداخل أو الخارج حيث كان أمراء الإقطاع يتجاذبون السلطة فلم يقدر على توحيد الأمة في هذه المرحلة.

المطلب الثاني: نواة وحدة المسلمين

بدأت هذه النواة في البلاد الشام وللمرة الأولى منذ الاجتياح الصليبي للبلاد المقدسة، فلم يستكن المسلمون أو يهدأ لهم بال سواء على الجبهة الشرقية في بلاد الشام أو الجبهة الغربية في بلاد مصر ضد الصليبيين. أما من الجهة الشرقية فقد أدرك طغتكين (أمير دمشق) وإيلغازي (أمير حلب) بضرورة الوحدة وجمع الصفوف عام 514 هـ وفق 1119 م وتجمعت جيوشهم ضد الصليبيين وانقضوا عليهم في أنطاكية وهزموهم شر هزيمة بيد أنهم لم يحتلوها واكتفوا بالنصر والغنائم وقتلوا حاكمها روجر0

سُرَّ الخليفة العباسي المسترشد في بغداد بهذا النصر فخلع على إيلغازي خلعة التشريف وقد عاجلته يد المنون بعدئذ، وأصبح أبنه سليمان حاكما على حلب بعده، فلم يحسن إدارة الملك مما حدا به أن يعقد صلحا مع بلدوين ملك مملكة القدس آنذاك.

---

(1) المصدر نفسه ج10 ص 253 بيروت 1965م.

المطلب الثالث: انبعاث حركة الجهاد الديني الإسلامي من اجل تحرير القدس

ذكرت أن طغتكين وإيلغازي تمكنا من هزيمة الصليبيين في معركة أنطا كية، بيد أنهما لم يحتلاها، وكانا قد وحّدا صفهما للمرة الأولى ضد قوى الصليبيين، فلم يتحقق حلمهما، حيث ورثهما ابناهما فأصبح سليمان حاكما لحلب، وعقد صلحا مع بلدوين وأصبح بوري حاكما لدمشق بعد والده طغتكين.

ظهر في الشرق الإسلامي القائد المظفر الذي أخذ على عاتقه لم شمل الأمة والعمل على وحدة الصف ضد الصليبيين، ألا وهو عماد الدين زنكي الذي بسط سلطانه على الموصل وحلب وبلاد الشام.

أدرك عماد الدين أنه لا بد له من إكمال الوحدة الإسلامية، فعمل على انضمام دمشق لحكمه حتى يقطع الطريق على الصليبيين فاستولى على ما يحيط بها من بلاد وبقيت المدينة تحت إمرة بوري، أيقن الصليبيون بأن الوضع آخذ بالتفاقم ضدهم وأن المسلمين أخذوا يعدون العدة لمناجزتهم والعمل على وحدة صفهم، فأخذوا يهاجمون الجبهتين الشرقية دمشق والغربية عسقلان، حتى لا يكون هناك مندوحة لتقوية هاتين الجبهتين ووحدتهما.

ازدادت المخاوف بين الفئتين، حتى أن أمراء الإقطاع أخذوا يدركون نوايا وأطماع الصليبيين في بلادهم، فعملوا على التنازل عن امتيازاتهم في سبيل المصلحة العامة، ووحدة الأمة تخوفا من الخطر الصليبي القادم.

استطاع عماد الدين أن يستفيد من الوضع الراهن آنذاك في دمشق، وما آلت إليه أوضاع هذه المدينة من ضعف في عهد أميرها بوري، الذي هادنه مستغلاً ضعف هذا الحاكم، كما استغل الفتنة التي حدثت في مصر في القصر الفاطمي، وعمل على اغتنام هذه الفرص من أجل إعادة دمج هذه البلاد في وحدة واحدة ضد الصليبيين، لكن الخليفة العباسي في بغداد لم يرق له الأمر فبعث إلى عماد الدين مرسوماً،يطلب منه احترام استقلال دمشق وعدم التدخل فيها، وبالفعل التزم عماد الدين بهذا الأمر، مما حدا به أن يحجم عن ضمها لحكمه، ولو أنه ضمها لعجل وحدة العالم الإسلامي ووقف أمام الصليبيين بقوة أكبر، فكان لهذا الشأن سبب في تأخير وحدة العالم الإسلامي آنذاك مما كان سببا في ترسيخ أقدام الصليبيين في البلاد لمدة أطول، وحاول جاهداً إعادة دمشق إلى حكمه،بيد أنه لم يستطع إذ استنجد حاكمها آنذاك بالفرنجة، فجمع عماد الدين زنكي قواته وهاجم الرها القلعة الصليبية المنيعة الحصينة، واستطاع أن يقتحمها وأن يستولي عليها، وبهذا فقد كان لهذا النصر المؤزر أصداء عالية، حيث فرح المسلمون بهذا النصر، وزاد من همتهم ورفع معنوياتهم وقويت الثقة بهذه الأمة التي إن توحدت حققت النصر على أعدائها.

أما على النقيض الصليبي، فقد كان لهذا النصر أسوأ الأثر، إذ أن الرها قاعدة صليبية هامة خسرها الصليبيون لوقوعها على مدخل بلاد الشام من جهة الحملات الصليبية، ولأنها من أكبر الحصون الصليبية أيضا، وأن احتلالها كان نقطة تحول في تاريخ الحروب الصليبية الإسلامية.

تحقق في عهد هذا المجاهد الكبير، الذي ربى جيلاً من القادة حملوا رسالة الجهاد والإعداد لتحرير البلاد وعملوا على وحدة الأمة التي تحققت فيما بعد وحققوا النصر المبين، وكان على رأسهم نور الدين بن عماد الدين زنكي، الذي واصل سيرة والده المجاهد وصلاح الدين الذي تحقق النصر المؤزر على يديه، وأنهى الوجود الصليبي من بيت المقدس إلى الأبد.

المطلب الرابع: إرساء قواعد الوحدة في بلاد الشام على يدي نور الدين زنكي لتحرير القدس

مما تقدم ندرك أن عماد الدين،رحمه الله، عمل على توحيد القوى الإسلامية في بلاد الشرق الإسلامي وتوجه بكل ما أوتي من قوة لمناجزة الصليبيين، وإعادة تحرير أجزاء مما احتلوه، فارتفعت بذلك معنويات المسلمين وزادت ثقتهم بالنصر المبين، كما أنه ترك لابنه نور الدين مهمة جسيمة، ألا وهي مواصلة الكفاح ضد الصليبيين، والعمل على توحيد قوى المسلمين في بلاد الشام،أولا: في عام 543هـ وفق 1147م حيث كان يحكم مدينة دمشق أنر وكان يحكم مدينة حلب نور الدين، توجهت جموع الصليبيين لمحاصرة دمشق واحتلالها، وقد بدا التعاون العسكري بين حلب ودمشق، إذ أرسل أنر إلى نور الدين يستنجده، فهرع إليه ووقف في وجه الصليبيين.

أدرك أنر أن قوة نور الدين في إضطراد متزايد، وأن المسلمين قد بدأوا يلتفون حوله فخشي من هذا المد، وعاود التحالف مع الصليبيين، إلاّ أن الصليبيين عاودوا الكرّة مرّة أخرى لاحتلال دمشق، مما دعا أنر إلى الاستنجاد بنور الدين في حلب وسيف الدين غازي صاحب الموصل وتصاف الجيشان الإسلامي والصليبي، فأدرك الصليبيون أن المسلمين قد بدأت لديهم بوادر الوحدة والوقوف صفاً واحداً أمامهم ثم انسحبوا عن دمشق، وبهذا أيقن الصليبيون أن نور الدين هو القائد الذي يمكن أن تتجمع تحت لواءه قوى المسلمين وهذا ما حدث بالفعل ولهذا فقد عمل نور الدين جادا على أن تكون الدعوة إلى الجهاد مطلبا دينيا يهم جميع المسلمين السنيين فشحن النفوس بهذا التوجه، كما أنه أخذ يوجه حركة الجهاد أيضا ضد الفاطميين في مصر الذين يختلف مذهبهم عن مذهب السنة التي تربى عليها المسلمون في الشرق الإسلامي.

ومن ابرز التوجهات في عهد نور الدين زنكي صوب القدس ومناجزة الصليبيين فيها، أنه في عام 506 هـ وفق 1112م أغار المسلمون على الضياع الواقعة بين عكا والقدس وقتلوا وغنموا منها الكثير.

يقول عارف العارف في كتابه "المفصل في تاريخ القدس" عن هذه الحقبة: "وحدثنا بن ميسر في تاريخه ما يأتي" بعد أن احتل الصليبيون بيت المقدس وأخذوها من الأفضل لم ينفك المسلمون عن إزعاجهم ومناوئتهم بين كل آونة وأخرى، وفي التاسع من جمادى الأول سنة 553 هـ وفق 1158م سار إليها، فعاث وخرب وعاد بغنائم".

لقد عثر الأستاذ (مكاليستر) في أسفل جبل الزيتون، وعلى بعد 600 متر من الزاوية الشمالية الشرقية من البرج المعروف قديما ببرج اللقلق، عند ملتقى وادي الجوز بوادي قدرون، على مغارة مصهرجة بالجص ذات قاعتين مربعتين، داخلية وخارجية، ذرع كل منهما أربع في أربع تقريبا، تحتوي الداخلية منها على بضع عشرات من الكتابات العربية المحفورة على جدرانها الثلاثة. فرسمها كما هي، وأودعها لدى الأستاذ الألماني (دالمن) وهذا اطلع عليها العلامة السويسري (ماكس فان برشم) الإختصاصي في مثل هذه الأمور، فعقد هذا فصلاً مطولاً عن هذه النقوش في مجموعته القيمة، ولكن لم يوفق إلى حلها.

زار الأستاذ عادل نفسه المكان، فوجد على الجدران كتابات عربية، وأسماء كتبت بالخط الكوفي، يدل شكله على انه من آثار منتصف القرن السادس للهجرة، ولقد تمكن من قراءة الأسماء التالية:

الله ولي بكر بن عمر، حمزة بن حميد، بشير بن عبد الله، محمد بن سنان، المنشئ إياس بن احمد، عبد الواحد بن السائب، أيوب بن عبد الله خرج وهو يسأل الشهادة.

وفي كهف قريب من المغارة نفسها، عثر الأستاذ (دالمن) على حجر نقشت عليه بعض الكتابات، رسمها الأستاذ شيك ونشرها في إحدى المجلات سنة 1892 م وقد حلها(ماكس فان برشم). فظهر أنه اسم عبد الله عثمان بن سعيد ألقصري، واستنتج من خطها الكوفي أنها والكتابة المتقدم ذكرها ترجع إلى منتصف القرن السادس للهجرة، أي في زمن الملك العادل نور الدين زنكي الملقب بالشهيد، وهو الزمن الذي كانت القدس فيه في حوزة الفرنجة.

ذهب بعض المستشرقين إلى أن هؤلاء القوم طائفة من المتصوفين أو الدراويش، وقال بعضهم إنهم خوارج أو قطاع طرق، ولكن الأستاذ عادل يؤكد أنهم أبطال من رجال نور الدين كان يبعث بهم، بين كل آونة وأخرى، ليجوسوا خلال الديار، ويأتوا إليه بالخبر اليقين، لأنه كان يسعى لإجلاء الصليبيين عن المدينة، ولكن قضى نحبه، قبل أن يدرك غايته، فقام بهذه المهمة ربيبه وخليفته صلاح الدين"[1]

(1) عارف العارف،المفصل، مصدر سابق، ص 170.

هنا لا بد لنا من وقفة نستشرف منها على هذه الحقبة من عهد المسلمين في مرحلة حكم نور الدين زنكي، الذي استطاع أن يوحد قوى المسلمين ولو إلى حد معين، من أجل تحرير القدس الشريف من أيدي الصليبيين، لم تغب القدس عن بال المسلمين ولو لحظة واحدة، فمنذ الغزو الصليبي لهذه الديار واحتلال بيت المقدس ما انفك المسلمون من الجبهتين الشرقية والغربية يناوشون الصليبيين، فتارة من عسقلان، حيث الفاطميين، وتارة من دمشق على أيدي جند نور الدين،حتى أن الكتابات التي وجدت في القدس في هذه الحقبة، والتي استطاع المحللون من تحليل مادتها دلت على أنها في نفس الفترة التي كان فيها نور الدين زنكي، يبعث بعيونه ورجاله للإطلاع على القدس، وأحوالها ويتتبع تحركات جند الصليبيين ليزودوه بالمعلومات عنهم،وهذا حال المسلمين الذين ظلوا على يقظة تامة من أجل تحرير بيت المقدس، والذي تحقق لهم، لأن هذا النسيج المتكامل من خيوط العزيمة، والإرادة الإسلامية، تمكن يوماً في أن يتوصل ويصبح قوة خلعت المعتدين، وأزالت عروش الغاصبين عن بيت المقدس وأرض المسلمين.

المطلب الخامس: نورالدين على طريق بيت المقدس مروراً بدمشق

عمل نورالدين على توسيع مساحة حكمه، حيث أنه في هذه الفترة قد بدأ التفكك يدب في الإمارات الصليبية، فقوي نفوذ نور الدين الذي سار على نهج أبيه في توحيد الأمة، لدحر الصليبيين وتحرير بيت المقدس منهم، وكان يدرك أن تحرير القدس لا يمر إلا عبر دمشق التي كان يحكمها (مؤيد الدين الصوفي) الذي تعاهد مع الصليبين، ولأهداف شخصيه وذاتية، ووقف في طريق وحدة العالم الإسلامي، آنذاك وعاهد الإفرنج على أن يكونوا يداً واحدةً على من يقصدهم من المسلمين.

وجه نور الدين قواته صوب دمشق ليحتلها، فاستنجد أهلها ببلدوين ملك بيت المقدس اللاتيني،إلا أن نور الدين لم يهاجم دمشق حقناً لدماء المسلمين، لأنه أراد أن يدخرها ليوم المعركة الفاصلة مع الصليبيين.

ثم عاد مرة ثانية، وحاول اقتحامها، واستنجد أهلها بالصليبيين الذين استدرجهم نور الدين، إلى سهل حوران، بيد أنهم فروا من ارض المعركة.

إن هدف نور الدين من هذا العمل، هو توحيد المسلمين ليجعل من هذه الأمة قوة في وجه الصليبيين.

في عام 550هـ – 1154م، قام نور الدين باحتلال دمشق وألحقها بدولته، وبهذا فقد تمت الوحدة الإسلامية في هذه الأقطار، وأصبحت الجبهة الإسلامية في الشرق قوية متراصة ضد الصليبيين، وبذلك تحقق الحلم الذي كان يراود الأمة في هذه الوحدة.

المطلب السادس: وحدة العالم الإسلامي الطريق لتحرير القدس

تحققت إلى عماد الدين زنكي صاحب أتابكية الموصل سنة 521 هـ توسيع حدود إمارته بعبقرية وبطولة، وما انطوى عليه فؤاده من حزم وغيرة على مصالح المسلمين، فلبى تطلعات المسلمين بضم إمارات حلب وحمص وحماه إلى إمارته، كما أنه استطاع أن يوقع بالصليبيين هزيمة منكرة سنة 539هـ حيث استرد الرها منهم، مما تسبب في رفع معنويات المسلمين.

تسلم الراية بعد التحاقه بالرفيق الأعلى، والده نور الدين محمود، واتبع سياسة والده، فاسترد كثيراً من القلاع والحصون من الصليبيين، ووضع نصب عينيه تحرير القدس من الصليبيين، وهو الذي أمر بصنع منبر المسجد الأقصى المبارك، الذي حرقه الصهاينة عام 1968 م،حيث تم صنعه في عهده، وتحقق للمسلمين وضعه في المكان الذي أعد من أجله في المسجد الأقصى المبارك،على يدي القائد المظفر صلاح الدين الأيوبي (رحمه الله).

بهذا فقد تم في عهده انضمام الجزيرة الفراتية (العراق) وسوريا والأردن والحجاز، فواصل مسيرة النضال والكفاح من أجل الهدف الأسمى، ألا وهو الوحدة الكبرى للسير على طريق تحرير القدس.

في الوقت الذي كان فيه نور الدين يعمل على توحيد العالم الإسلامي في الجبهة الشرقية، وقلبه يتوق لضم بلاد مصر إلى هذه الوحدة، كان يحكم بيت المقدس الحاكم الصليبي إمرليك حيث أدرك هذا أن نفوذ نور الدين أخذ يتسع، فأغار على دمشق، بيد أنه لم يستطع اقتحامها، والتقى بجيش نور الدين في حوران، حيث أضطر إلى الانسحاب، وبهذا أدرك ما لنورالدين من تطلعات صوب مصر من دمجها إلى الوحدة الإسلامية في الشرق، فعزم على احتلال مصر التي كانت تحت إمرة الفاطميين، وكان قائد الجيش الفاطمي ضرغام وقد هزمه إمرليك.

كان الصراع محتدماً بين ضرغام وشاور، اللذان كانا يتصارعا على الحكم في مصر، وقد استنجد الأخير بنور الدين ضد خصمه.

"طلب من نور الدين أن يعيده إلى الوزارة، ويعزل خصمه ضرغام مقابل أن يتحمل نفقات الحملة وأن يكون تابعا له، وأن يمنح نورالدين ثلث خراج مصر، وأن يكون "أسد الدين شيركوه" مقيماً بجنده في مصر، ويتصرف هو وشاور في أمور البلاد حسبما أراد نور الدين"[1]

بهذا العرض تحقق إلى نورالدين رغبته حيث وجد له نصيراً كبيراً للدخول إلى مصر وضمها إلى ملكه.

---

(1) ابن الأثير، مصدر سابق، بيروت: ص 196 .

خرج جند نور الدين يحدوهم الأمل لامتلاك مصر، وضمها إلى الوحدة الإسلامية في الشرق، وكان على رأس هذه الحمله أسد الدين شيركوه، يرفده شاور إلى مصر، فبقي نور الدين يناوش الصليبيين في الجبهة الشرقية، ليشغلهم عن حدود مصر، وقد استطاع هذا الجند من التغلب على ضرغام وجنده فيعود شاور إلى الحكم في مصر.

لكن شاور الذي من طبعه التآمر والخيانة، وحب الذات مهما كلف الثمن، ومن أي جانب ولو على حساب الأمة والقضية، عاد وانقلب على أقرب الناس الذين ناصروه بالأمس، وتآمر عليهم مع الصليبيين،وأبلغ الصليبيين بنوايا نور الدين، وتطلعاته لضم مصر إلى الوحدة الإسلامية، فإذا ما تحققت له هذه الوحدة، فإن الكيان اللاتيني الصليبي في إمارة بيت المقدس يصبح في خطر، وبهذا فقد تآمر شاور على شيركوه الذي عاد من توه من بلاد الشام والتحق بنور الدين.

في عام 563 هـ أرسل نور الدين مرة أخرى شيركوه، وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي إلى مصر لاحتلالها،إلاّ أن شاور استنجد مرة أخرى بالصليبيين، ضد إخوانه المسلمين، وتحالف الفاطميون والصليبيون ضد إخوانهم المسلمين، أي جند أسد الدين شيركوه ووقعت المعركة بينهما في الصعيد، حيث وقف جند شاور والصليبيون ضد جند شيركوه، الذي استنجد بأهل الإسكندرية الذين ناصروه بالفعل، فتحقق لهم النصر على الأعداء، وكان نتيجة ذلك أن يخلي شيركوه الإسكندرية على أن ينسحب الصليبيون من مصر نهائيا.

أغار إمرليك مرة أخرى على مصر، حتى يقطع على نور الدين هدفه من تحقيق وحدة العالم الإسلامي، في خضم هذه الأحداث، وما قام به شاور من انتهاكات وتحالفات رخيصة مع الفرنجة ضد أمته ووطنه ودينه، فإن الملك الفاطمي أرسل إلى نور الدين يستحثه القدوم إلى مصر ويستغيثه ويستنجده من الصليبيين، وما آل إليه الوضع في هذه البلاد، وقد أرسل في الكتب التي بعثها إلى نور الدين شعور النساء.

صالح شاور الفرنجة على ألف ألف دينار ولما وصلت الكتب إلى السلطان نورالدين، جهَّز جيشاً بقيادة الأمير أسد الدين شيركوه بن شادي إلى الديار المصرية، ومعه العساكر النورية، وأرسل معه ابن أخيه صلاح الدين للمرة الثانية. لما وصلت الجنود النورية إلى حدود مصر، هربت الجيوش الإفرنجية، فخلع عليه الخليفة العاضد، وأصبح شيركوه هو المقدم على الجند، وحاول شاور التآمر عليه وقتله، فأيقن صلاح الدين بهذه الخطة والتآمر المدبر، فوثب على شاور وقتله، واستراحت البلاد والعباد من شر هذا المتآمر على الأمة ومقدراتها.

توفي القائد أسد الدين شيركوه سنة 564 هـ،وولى العاضد صلاح الدين الأيوبي مكانه،وخلع عليه رتبة الوزارة، حيث أخذ يغير على الصليبيين في الجبهة الغربية، وولى قضاة شافعيين على مصر بدل

القضاة العلويين.سنة 566 هـ وفي سنة 567 هـ أقيمت الخطبة العباسية بمصر، وقطعت خطبة العاضد لدين الله الفاطمي، وانتهى حكم العلويين في مصر."[1]

بهذا تحققت الوحدة بين الأقطار الإسلامية، العراقية والشامية والمصرية واليمنية والجزيرة العربية، وأصبحت القيادة موحدة، والجيوش الإسلامية واحدة، وهنا لم يبق للصليبيين في هذه الديار إلا فرصة الانتظار، لما يحل بهم من قبل هذه الأقطار الإسلامية، وأن ينتظروا مصيرهم الذي آلوا إليه فيما بعد، في عهد صلاح الدين الأيوبي فكانت نهايتهم.

فبالوحدة تحقق للمسلمين النصر المؤزر، وبالوحدة تحررت القدس من ربقة الصليبيين الذين عاثوا فيها فساداً لمدة تسعين عاما تقريباً، وبالوحدة خرج الصليبيون من هذه الديار يجرون أذيال الهزيمة، وفي هذه الأيام والعالم الإسلامي يعيش من الفرقة والانقسامات والهيمنة الغربية، والقدس ضائعة في أيدي الصهاينة، فإن الوحدة هي السبيل إلى عودة القدس والديار الفلسطينية لأصحابها الشرعيين.

المطلب السابع: حال مملكة بيت المقدس في عهد الصليبيين اللاتين قبل التحرير الصلاحي

من المعلوم أن التاريخ يعيد نفسه، فبالأمس القريب كانت أوضاع المسلمين مزرية، فهم في حالة لا يحسدون عليها من الفرقة والهوان والصراع الدامي بين المدن الإسلامية في الشرق، مما سهّل على الصليبيين اجتياز هذه البلاد ونجاح ما يسمى بالحروب الصليبية، واحتلال بيت المقدس الهدف الرئيس لهذه الحملات بحجة تحرير قبر السيد المسيح.

وها هي مملكة بيت المقدس اللاتينية قد عادت أدراجها، وبدأ الضعف يدب في أوصالها، وعلى الجانب الآخر، كان المسلمون يعدون العدة، ويجمعون صفوفهم، ويوحدون أقاليمهم، ويعبئون جيوشهم، من أجل استعادة الفردوس المفقود (بيت المقدس) إلى حظيرة الإسلام.

هذان جانبان متناقضان عملا باتجاهين متنافرين في كلتا المرحلتين، فكانت النتيجة الأولى على رؤوس المسلمين، وأما الثانية فكانت تصفية الوجود الصليبي من هذه الديار، وإعادتها إلى أصحابها الشرعيين بفضل الوحدة والتماسك، من جانب وبسبب الضعف والخوار، في الجانب الصليبي لمملكة بيت المقدس اللاتينية.

أمّا الأوضاع التي كانت تسود مملكة بيت المقدس اللاتينية في هذه الحقبة فكانت كما يلي:

أولا: تعدد الإمارات الصليبية في الشرق الإسلامي،واتخاذ كل منها حكماً وحكومة مستقلة عن مملكة بيت المقدس ومن هذه الإمارات.

أ- إمارة الرهاب –إمارة أنطا كية ج- إمارة طرابلس.

---

(1) مجير الدين الحنبلي، مصدر سابق، ص 314.

كانت هذه الإمارات يحكمها حكام مستقلون عن إمارة بيت المقدس، بيد أن مرجعيتها كانت تعود في النهاية إلى الإمارة اللاتينية في القدس. فكانت تعقد المعاهدات مع المسلمين أحيانا وتقف ضدهم أحيانا أخرى.

ثانيا: الوصاية – كان ملك بيت المقدس يعتبر نفسه وصياً على هذه الإمارات حال غياب الملك، أو حين وفاته، فيترك صبياً صغيراً غير قادراً على إدارة دفة الحكم في إمارته، لعدم بلوغه السن القانونية، فيعتبر ملك بيت المقدس اللاتينية وصياً عليه حتى يكبر.

يقول (أرنست بار كر) في كتابه الحروب الصليبية "أما الأمراء فإنهم يتصرفون في إماراتهم على أنهم مستقلون، فإذا انضمت عساكرهم إلى عساكر الملك، فإنهم يقدمون هذه الخدمة على أنهم على قدم المساواة معه، كما دأب الأمراء على أن يعقدوا المعاهدات مع المسلمين، أو أن يقوموا بمهاجمتهم على الراغبين معاهدات الملك مع أمراء المسلمين، ولكل أمير قوانينه الخاصة به.")[1]

فكان هذا من الأسباب التي أدت إلى الصراع الداخلي، بين أمراء الإمارات الصليبية، وعدم الاستقرار في مملكة بيت المقدس اللاتينية، وكان من الأسباب الرئيسية التي ساهمت في انهيار الصليبيين أمام المسلمين.

ثالثا: ظهور الأرستقراطية الإقطاعية.

أعطت مملكة بيت المقدس اللاتينية الحق فيمن يأتي من الغرب للاستيلاء على مواقع في الشرق الإسلامي،وأن يشكل إقطاعيات له فيها، وبهذا فقد تشكلت القلاع والحصون على حدود المملكة اللاتينية في الشرق، مثل حصن الشوبك والكرك وإيلات، لكن هذه الحصون والقلاع تحولت فيما بعد إلى نقمة على رأس المملكة اللاتينية الصليبية في بيت المقدس، وقد أخذت هذه القلاع والحصون تنحو منحى استقلالياً عن المملكة الأم.

رابعا: ظهور النظام الوراثي في الحكم: لقد كان النظام الوراثي سبباً هاماً من الأسباب التي أدت إلى انهيار الحكم في المملكة اللاتينية في بيت المقدس.

خامسا: انهيار النظام المالي بسبب سوء إدارة النظام الضريبي.

لقد كان هناك امتيازات خاصة للأحياء الإيطالية وأخرى للكنيسة،"علما بأن رجال الدين الذين كانوا يمتلكون أراضي شاسعة في الوقت نفسه رفضوا الدفاع عن المملكة، وأصرّوا أن يتقاضوا نصيبهم كاملاً من العشر عن كل مورد من الموارد وحتى الغنائم، إن هذا قد أثر كثيراً على اقتصاد المملكة،

(1) باركر، أرنست، مصدر سابق، ص 54 .

كذلك فإن الطائفتين الدينيتين الإسبتارية والداوية حصلتا على إعفاءات كبيرة بجانب ما حصلت عليه الأحياء الإيطالية من امتيازات وإعفاءات، كل ذلك جعل اقتصاد المملكة منهاراً وأدى إلى ضعفها وزوالها.[1]

لهذا فإن هذه الأسباب جميعها من ناحية، وصعود الوحدة العربية الإسلامية من ناحية ثانية، أدى إلى ضعف المملكة اللاتينية سياسياً واقتصادياً، حيث أودى بها إلى الانهيار، وإعادة البلاد إلى أصحابها الأصليين.

(1) يوسف، د – حمد أحمد عبد الله،مصدر سابق، ص 217.

الفصل الرابع

المبحث الأول

القدس في عهد صلاح الدين

المطلب الأول: صلاح الدين يوحد الأمة قبل تحرير بيت المقدس

عمل نور الدين زنكي ووالده على توحيد القوى الإسلامية في بلاد ما وراء النهر والشام من أجل تحرير بيت المقدس من الصليبيين، واصل آل هذا البيت الكريم جهودهم حيث أخذوا يمدون أعمالهم إلى مصر الفاطمية، حتى يوسعوا الوحدة الإسلامية، وبذلك تتحقق لهذه الأمة القوة والرفعة لتعود لأمجادها.

بينما كانت مصر الفاطمية الشيعية، تنتابها الصراعات الداخلية، والتزاحم على المناصب ومراكز النفوذ في السلطة، فقد تم الاستنجاد بنور الدين زنكي من أجل دفع كيد الصليبيين عن أرض مصر، وبهذا فقد استجاب لهذا النداء، وأوفد قائده المشهور أسد الدين شيركوه إلى مصر بجيش كبير، كما كان من أهم أعماله أيضا، فض النزاعات الداخلية التي طرأت على نظام الحكم في مصر، وقد توالى هذا الشأن ثلاث مرات، وكان لنور الدين الرؤيا الثاقبة في اختيار الرجال، ليقوموا بهذه المهام الجسام، ويوطدوا أركان الوحدة بين المشرق والمغرب الإسلامي، وقد كان لصلاح الدين الأيوبي الحظوة في هذه الاختيارات الموفقة، فخبر الطريق وعرف من أين تؤكل الكتف، وكيفية التعامل مع الأحداث القادمة، لقد سار إلى مصر ثلاث مرات، وكانت المرة الأخيرة التي استقر بها في مصر ليبدأ مشواره الجديد، واضعاً قدميه في أول الطريق.

لعبت عدة عوامل في إبراز شخصية هذا الفارس الفذ، الذي خلّد التاريخ ذكره في العصور الوسطى، والذي يعتبر بحق وبشهادة الأعداء، أنه كان من أبرز القادة في العصور الوسطى،فقد كان شجاعاً مدرباً، خاض الحروب العديدة، وأثبت جرأة وبطولة نادرة في الانتصارات التي حققها، علاوة على ذكائه، بالإضافة إلى كونه ممن يثق بهم نور الدين زنكي، وأوكل إليه في عدة مناسبات بمساعدة الحملات على مصر، إلى أن استتب له الأمر،واستلم الوزارة، واستطاع أن ينفذ بقدرة فائقة إلى سدة الحكم، ولقد واجهته العديد من العقبات في طريق الحكم، بيد أنه بشجاعة وبفطنة وجرأة استطاع أن يتغلب عليها، وأن يبرز من خلال هذا الأحداث ليكون الشخص الوحيد الذي تجمع عليه الأمة، ويوحد كلمتها، ويخوض المعارك الداخلية والخارجية، ضد أعدائه وضد الصليبيين في فترة قياسية.

كانت المعارك التي خاضها ضد الصليبيين من أشرس المعارك، فكانت معركة حطين هي المعركة الحاسمة على مشارف القدس، والتي آلت إلى تحرير بيت المقدس من الصليبيين الغزاة، الذين دام حكمهم لها حوالي ثمانية وثمانين عاما.

لم تكن الطريق التي سلكها يسيرة أو مفروشة بالورود والرياحين، بل كانت طريقاً دامية صعبة تخللها العديد من المعارك الداخلية والخارجية، وتجلت فيها الانتصارات الكبيرة، فكان من أهم هذه الأحداث التي جابهته ما يلي:

أولاً: إنهاء الخلافة الفاطمية العلوية في مصر: كان من أبرز المهام التي واجهت صلاح الدين في هذه الحقبة، مشكلة إنهاء الخلافة الفاطمية الشيعية، وهذا مركب خطر، ليس من اليسير الولوج إليه، لولا الإرادة الصلبة والعزيمة القوية التي تحلّى بها هذا الفارس الفذ، حيث أن الأمور قد أصبحت في القصر الفاطمي بيد صلاح الدين،وبعد أن قتل جوهر السوداني أخذت تتردد في القصر عبارات الذم للخليفة الفاطمي العاضد، بل تحدثوا عن خلعه من الخلافة ثم أمره نور الدين بإسقاط اسم العاضد من الخلافة وفي يوم الاثنين العاشر من المحرم سنة 597 هـ سنة 1171 م توفي العاضد بعد قطع اسمه من الخلافة بثلاثة أيام، وأرسل الخليفة العباسي الخلع إلى كل من نورالدين محمود وصلاح الدين إقراراً منه بتوليهما أمور البلاد.[1]

ثانياً: الثورات الداخلية:

أ. ثورة كنز الدولة في الصعيد: بعدما أستتب الأمر لصلاح الدين في مصر، لم يدعه حساده وأصحاب الشهوات الآنية من مواصلة مسيرة الجهاد، بل تجمعوا في فيالق تربوا على مائة ألف في الصعيد من فاطميين شيعة من أصحاب النفوذ السابق في عهد الخلافة الفاطمية في مصر، بالإضافة إلى المعارضة، وأصحاب المصالح الآنية، وقصدوا القاهرة لمهاجمتها، وكانوا تحت إمرة كنز الدولة الذي كان والياً على أسوان.

واجه العادل أخو صلاح الدين هذه القوة، وكانت المعركة في شهر صفر سنة 570 هـ وفق 1174 م وقد استطاع أن يصد هذه القوة وينتصر عليهم، ويؤمن الحدود الجنوبية، لم تكن هذه المعركة الوحيدة التي أبلى فيها العادل،بل كان ساعد صلاح الدين الأيمن في القضاء على العديد من الثورات الداخلية.

---

(1) ابن الأثير، مصدر سابق، ج1 ص 150 .

ب. مؤامرة جوهر السوداني ضد صلاح الدين: عهد الخليفة الفاطمي الملك العاضد إلى أحد السودانيين ويكنى (جوهر) حيث كان أميراً للقصر، وكان له سيطرة ونفوذ كبيرين في مصر وعلى مقدرات الدولة الفاطمية، فلما قوي نفوذ صلاح الدين في مصر وسطع نجمه، أصاب جوهرا الغيرة والحسد فدبر مؤامرة مع بعض الأمراء المنتفعين ضد صلاح الدين، وقد تعدى الأمر إلى أكثر من ذلك حيث راسل الصليبيين أعداء الوطن والدين من أجل القضاء على صلاح الدين، فعلم بالأمر وأخذ يترصد له في القصر إلى أن اركن جوهر ذات يوم فانقض عليه صلاح الدين وقتله وأراح القصر منه.

"ويذكر الجبرتي أن الخليفة العاضد هو مدبر تلك الفتنة"[1]

ثالثاً: تأمين الحدود الخارجية:

أ. فتح بلاد اليمن وتأمين حدوده منها: فقد كان حاكم اليمن شيعياً فاطمياً ولهذا فإن صلاح الدين فكر في الاستيلاء على هذه البلاد لموقعها الإستراتيجي، ولأهميتها التجارية، وكان هذا الحال في عهد نور الدين محمود، فاستأذنه صلاح الدين لهذه المهمة، فأذن له، وأرسل توران شاه إليها بجيش كبير، فسار إلى عذاب ثم إلى جده، ثم زار واعتمر وتوجه صوب اليمن، وفتحها في الثامن من شوال سنة 596 هـ وفق 1173 م. واختط مدينة (تعز) لموقعها الجميل ثم ثبت الولاة على الأقاليم، وعاد إلى مصر، وبذلك يكون صلاح الدين قد أمّن حدوده الشرقية الجنوبية من أي عدو محتمل. [2]

ب. تأمين الحدود على الجبهة الغربية في بلاد المغرب: أرسل إلى المغرب وزيره شرف الدين قرقوش سنة 583 هـ وقد تمكن من هزيمة ابن عبد المؤمن في معركة القيروان، الذي ما لابث أن جمع قواه وأعاد المدينة، وهكذا فإن صلاح الدين أمّن الجانب الغربي لمملكته[3].

رابعاً: صد الهجمات الصليبية الخارجية في كل من:

أ. دمياط: أدرك الصليبيون أنهم أمام عدو شرس، فأوعزوا إلى صليبيي الغرب بمهاجمة دمياط،وكان ذلك في عام 565 هـ وفق 1169 م، بيد أن نورالدين حصن هذه المدينة وأخذ يشن الغارات على الصليبيين من بلاد الشام، حتى يوزع جهودهم، وبالفعل

---

(1) الجبرتي، عبد الرحمن، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، مطبعة لجنة البيان العربي 1958م، ج1، ص49.

(2) المقريزي، مصدر سابق، ج3 ص 59 .

(3) د حمد أحمد عبد الله يوسف، مصدر سابق، ص 232 .

نجح في هذه الإستراتيجية، وكان القائد عليها صلاح الدين الذي استطاع بكل كفاءة من دحر الصليبيين وتبعهم إلى غزة فعسقلان فالرملة، إلى أن احتل أيله (العقبة) وبذلك عمل جسراً برياً بين مصر وبلاد الشام.

ب. صد أسطول ملك صقلية عن الإسكندرية عام 569 هـ وفق 1173 م، فقد تم استدعائهم من قبل أهل اليمن للقضاء على صلاح الدين، إلا أن القائد فخر الدين قراجا صدهم وببسالة فائقة، واستولى على أسلحتهم وأمتعتهم.[1]

خامسا – الجفاء بين نور الدين وصلاح الدين: كان من أبرز المشاكل التي واجهت صلاح الدين تلك الجفوة التي حدثت بينهما، والقطيعة التي استشرت بين هذين المجاهدين الكبيرين، والكلام هنا إلى المؤرخ (بسام العسلي) في كتابه "فن الحرب الإسلامي"" حيث سار صلاح الدين بجيشه من مصر إلى بلاد الإفرنج غازياً، ونازل حصن الشوبك وبينه وبين الكرك يوم، وحصره وضيّق على من به من الفرنجة، وأدام القتال، وطلبوا الأمان واستمهلوه عشرة أيام، فأجابهم إلى ذلك، فلما علم نور الدين بما فعله صلاح الدين، سار عن دمشق قاصداً بلاد الإفرنج أيضاً، ليدخل إليه من جهة أخرى، فقيل لصلاح الدين: "إن دخل نور الدين بلاد الإفرنج وهم على هذا الحال، أنت من جانب ونور الدين من جانب، ملكها، ومتى زال الإفرنج عن الطريق وأخذ ملكهم، لم يبق بديار مصر مقام مع نور الدين0 وإن جاء نور الدين إليك وأنت هاهنا، فلا بد لك من الاجتماع به، وحينئذ يكون هو المتحكم بك فيما يشاء، إن شاء تركك أولا، فقد لا تقدر على الامتناع عليه والمصلحة الرجوع إلى مصر"فرحل عن الشوبك عائدا إلى مصر، ولم يأخذ الحصن من الإفرنج، وكتب إلى نور الدين يعتذر باضطراب الأوضاع في البلاد المصرية، وأن الشيعة العلويين عازمون على الوثوب بها، وأنه يخاف عليها من البعد عنها من أن يقوم أهلها على من تخلف بها، فيخرجوهم وتعود ممتنعة، وأطال الأعذار، فلم يقبلها نور الدين منه وتغير عليه، وعزم على قصد مصر وإخراجه عنها.وظهر ذلك، فسمع صلاح الدين الخبر فجمع أهله وفيهم أبوه نجم الدين أيوب وخاله شهاب الدين الحارمي ومعهم سائر الأمراء، وأعلمهم بما بلغه من عزم نور الدين وحركته إليه، واستشارهم، فلم يجبه أحد منهم بكلمة واحدة، فقام ابن أخي صلاح الدين واسمه(تقي الدين عمر) فقال: "إذا

(1) المصدر نفسه ص 227.

جاءنا قاتلناه ومنعناه عن البلاد" ووافقه غيرهم من أهلهم، فتصدى لهم نجم الدين أيوب وشتمهم، وأنكر ذلك واستعظمه، وشتم تقي الدين وأقعده، وقال لصلاح الدين:

" أنا أبوك وهذا خالك شهاب الدين، ونحن أكثر محبة لك من جميع ما ترى، والله لو رأيت أنا وخالك هذا نور الدين لم نمكث إلا أن نقتل بين يديه، وإن أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلناه، فإذا كنا نحن كذلك فما ظنك بغيرنا، وكل من تراه عندك من الأمراء لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسروا على الثبات على سروج خيولهم، وهذه البلاد له، ونحن مماليكه ونوابه فيها، فإذا أراد سمعنا ،اطعنا، والرأي أن نكتب كتابا مع نجاب، تقول فيه: بلغني أنك تريد الحركة لأجل البلاد، فأي حاجة إلى هذا؟ يرسل المولى نجّابا يضع في رقبتي منديلا، ويأخذني إليك، وما هاهنا من يمتنع " وقام الأمراء وغيرهم وتفرقوا على هذا، فلما خلى أيوب بابنه صلاح الدين قال له:

"بأي عقل فعلت هذا؟ أما تعلم أن نور الدين إذا علم عزمنا على منعه ومحاربته، جعلنا أهم الوجوه إليه، وحينئذ لا تقوى عليه؟ وأما الآن، إذا بلغه ما جرى، وطاعتنا له تركنا واشتغل بغيرنا، والأقدار تعمل عملها. والله لو أراد نور الدين قصبة من قصب السكر لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو أقتل " فعمل صلاح الدين ما أشار به.

عاد الجفاء بينهما للمرة الثانية، حيث تم الاتفاق بينهما على حصر الكرك، على أن يخرج صلاح الدين من مصر، ويسير نور الدين من دمشق، فأيهما سبق صاحبه يقيم إلى أن يصل الآخر إليه، وتواعدا على يوم معلوم، يكون وصولهما فيه، فسار صلاح الدين عن مصر، لأن طريقه أبعد وأشق ووصل إلى الكرك وحصره.

وأما نور الدين لما وصله كتاب صلاح الدين برحيله من مصر، فرّق الأموال، وجمع المواد التموينية وما يحتاج إليه الجيش وسار إلى الكرك، فوصل إلى الرقيم وبينه وبين الكرك مرحلتان. فلما علم صلاح الدين بقربه، خافه هو وجميع أهله، واتفق رأيهم على العودة إلى مصر، وترك الاجتماع بنور الدين لأنهم علموا أنه إذا اجتمعا كان عزله عن نور الدين سهلا، فلما عادا أرسل الفقيه عيسى إلى نورالدين يعتذر عن رحيله، بأنه كان قد استخلف أباه نجم الدين أيوب على ديار مصر، وأنه مريض شديد المرض، ويخاف أن يحدث حادث الموت فتخرج البلاد عن أيديهم، وأرسل معه من التحف والهدايا، ما يجل عن الوصف، فجاء الرسول إلى نور الدين وأعلمه بذلك، فعظم عليه وفهم المراد من العودة، إلا أنه لم يظهر للرسول تأثراً، بل قال له: " حفظ مصر أهم عندنا من غيرها " وسار صلاح الدين إلى مصر فوجد أباه قد قضى نحبه ولحق بربه. "[1]

(1) العسلي، بسام، فن الحرب الإسلامي (أيام الحروب الصليبية)، بيروت دار الفكر: ، 1988 م،المجلد الرابع ص 98.

(وسبب موته: أنه ركب بمصر فنفرت به فرسه فوقع فحمل إلى قصره وبقي أياما ومات في السابع والعشرين من ذي الحجة سنة ثمان وستين وخمسمائة، وكان خيّراً عاقلاً،حسن السيرة،كريما، كثير الإحسان، ودفن إلى جانب أخيه شيركوه، ثم نقلا بعد سنتين إلى المدينة الشريفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام)[1]

كان هذا الجفاء بين القائدين العظيمين، فزاد واتسع، وكان صلاح الدين يخشى نور الدين واللقاء به، ففهم نور الدين بأن صلاح الدين يريد البقاء في مصر حاكما لها [2]، إلا أن أرسل إلى نور الدين كشفاً بواردات مصر حتى يظنه على الولاء له، وينتقل نور الدين زنكي إلى الرفيق الأعلى سنة تسع وستين وخمسمائة، وكان ملكاً عادلاً مجاهداً خيّراً فتح الفتوحات واتسع ملكه وخطب له بالحرمين واليمن ومصر.

وبوفاة هذا المجاهد الكبير الذي أمضى حياته في صراع مرير مع الفرنجة،وفتح الفتوحات وجمع البلاد، ووحد المسلمين، خلص لصلاح الدين الجو وارتاح من متاعب داخليه وخارجية، وأصبحت القوة الكبرى في بلاد المسلمين بيده، وعمل على المواصلة في توحيد الأمة، ومحاربة الفرنجة، حاملا رسالة السلف الصالح.

ويصف رنسيمان المجاهد نور الدين قائلا " بينما كان نور الدين راكبا مع أصدقائه ذات صباح، يجوسون الحدائق، تحدث إليهم عن تفاهة حياة الإنسان، ولم تنقض سوى تسعة أيام، حتى مات نور الدين في 15 مايو سنة 1174 م بالخوانيق (الذبحة الصدرية). كان نور الدين حاكماً عظيماً، ورجلاً صالحاً، أحب العدالة وآثرها على كل الأمور، على أن جانباً من نشاطه قد زايله،بعد المرض الذي ألّم به قبل تسعة عشر عاما، وصار ينفق معظم وقته في أعمال الخير والتقوى، ورغم ما اتسمت به تقواه من التزمت والضيق، فإنها أكسبته احترام رعاياه وأعدائه سواء، كان شديد التقشف، وقل أن ابتسم والتزم البساطة في حياته، وحمل أسرته على أن تسير على نهجه، وآثر أن ينفق أمواله على أعمال البر والإحسان، كان إدارياً حازماً يقظاً، ودعمت حكومته الرشيدة ما أقامه سيفه له من مملكة، وسعى نورالدين بصفة خاصة إلى الحد من قلق واضطراب أمرائه من الترك والكرد، بأن أقرهم على إقطاعياتهم، على أن يؤدوا منها أجنادا، غير أن محاكم العدل التي أنشأها كبحت جماحهم وكسرت شوكتهم. وأسهم هذا النظام الإقطاعي المعتدل إلى حد كبير في إعادة الرخاء إلى سوريا، بعد أن مضى

(1) مجير الدين الحنبلي، مصدر سابق ج1 ص 315 .

(2) أبو شامه، مصدر سابق، ج11 ص 206 .

نحو قرن على حكم شيوخ البدو. وكان نور الدين في مظهره، طويل القامة، داكن البشرة، أجرد اللحية، دقيق التقاطيع، هاديْ الطبع، يغلب عليه الأسى والحزن، كان لعب كرة القدم هوايته الأثيرة عنده[1]

المطلب الثاني: صلاح الدين الأيوبي يأخذ زمام المبادرة

بعد وفاة نور الدين زنكي، كان الصراع محتدماً على الملك بين جميع الأمراء الذين عاشوا في عصره، وقد أسند الحكم إلى ولده إسماعيل، الذي كان في سن الصبا، ولم يكن لديه تلك المقدرة أو الحنكة السياسية، أو العسكرية، التي يجابه بها من حوله من الطامعين في الحكم، وكان من أبرز الذين يرغبون في توحيد الأمة، القائد المظفر صلاح الدين الذي عمل بجد واجتهاد على إعادة الصفوف ورصها، فحشد جيشاً ضخماً عبر الحدود ضد الصليبيين، بينما أخذت الجيوش القادمة من سائر الإمبراطورية تجتمع في مايو 1187 م، توجه صلاح الدين على الطريق المؤدي إلى مكة ليتولى حراسة قافلة الحجاج، التي كان بين أفرادها أخته وابنها عائدين من المدينة المقدسة، حتى يطمئن إلى أن رينالد لن يحاول مرة أخرى القيام بغارات قطّاع الطرق، وفي تلك الأثناء تدفقت العساكر من حلب والموصل وماردين حتى أضحى أضخم جيش قيادته لصلاح الدين.

المطلب الثالث: على طريق بيت المقدس

في يوم الجمعة 26 يونيو 1187 م تولى صلاح الدين قيادة قلب الجيش، وفي أول يونيو 1187 م اجتاز جيشه نهر الأردن عند سن النبرة ثم احتلوا طبريا.

عسكر المسيحيون في صفورية والمعروف أن خير طريق يؤدي من صفوريه إلى طبرية يتجه قليلا نحو الشمال والشرق عبر تلال الجليل، ثم يهبط إلى بحيرة طبريا، أما الطريق الآخر فإنه يسير إلى الجسر المقام عند سن النبرة (الصنبرة) وأعلمه العيون أن الملك (جاي) أخذ يتحرك من صفورية على إمتداد الطريق الشمالي، وعندئذ قاد صلاح الدين جيشه نحو خمسة أميال عبر التلال حتى بلغ حطين، حيث أخذ الطريق يهبط نحو البحيرة.

لم يتوفر الماء لجيش الصليبيين على امتداد الطريق، فلم يلبث الرجال والخيول أن اشتدت معاناتها للظمأ، وترتب على شدة عنائها وعذابها، أن أبطأت الخطأ في سيرها، ودأب رماة المسلمين على مهاجمة مقدمة الجيش المسيحي ومؤخرته معا، وأمطروا قلب الجيش بالسهام، وأسرعوا إلى الابتعاد، أخذ ريمون يصيح قائلا(يا ألله) انتهت الحرب لقد هلكنا وزالت المملكة.

---

(1) ستيفن رنسيمان، مصدر سبق ذكره، ط3، نقله إلى العربية الدكتور ألباز ألعريني، 1993م،ج2،،ص،644 .

أمّا صلاح الدين الذي عسكر بجنده في وادي معشب، فإنه لم يستطع أن يكتم فرحته، وأخذ المسلمون يهللون وأخذ بعض فرسان الفرنجة يلتمسون الماء ففشلوا، وكيما يزيد المسلمين في عناء المسيحيين ومتاعبهم أشعلوا النار في الأعشاب والشجيرات الجافة التي تغطي التل، فغشي المعسكر المسيحي الدخان الساخن

وفي جنح الظلام حرّك صلاح الدين رجاله، فيما كان يبزغ فجر يوم السبت 4 يوليو 1187 م حتى تم تطويق جيشه الملك (جاي) ويقول بعض المؤرخين أنه ليس بوسع قط أن يفلت من الشبكة المنصوبة.[1]

المطلب الرابع: يوم حطين 4 يوليو سنة 1187م

وهذا الكلام إلى ستيفن رنسمان الصليبي" وما جرى في هذه الوقعة من أحداث" لم يلبث المسلمون أن بدأوا الهجوم عقب طلوع النهار ولم يخطر ببال الرجالة المسيحيين إلا فكرة واحدة تدور حول الماء، إذ حاولت جماعة كبيرة منهم أن تشق لها طريقاً على المنحدر المؤدي إلى بحيرة طبريا، التي تقع مياهها تحت التل، غير أنه جرى ردهم إلى التل وقد غشاهم من كل جانب لهيب الحرائق وطوقهم المسلمون من كل جانب فلقي عدد كبير مصرعهم على الفور، بينما وقع آخرون في الأسر، وكان منظر المسيحيين وهم يرقدون على الأرض جرحى وقد تورمت أفواههم يثير من بالغ الألم ما حمل خمسة فرسان ينتمون لريموند على التوجه إلى قادة المسلمين يتوسلون إليهم أن يجهزوا عليهم حتى ينتهي عذابهم، أما الفرسان الذين اتخذوا أماكنهم على التل، فإنهم استماتوا في القتال في شجاعة باسلة ونادرة، إذ ردوا حملات المسلمين الواحدة بعد الأخرى وكبدوهم خسائر فادحة غير أن أعدادهم أخذت تتضاءل وبدأت قواتهم في الانهيار بعد أن أضعفها الظمأ الشديد. وبناء على طلب الملك وقبل فوات الوقت قاد ريموند فرسانه محاولا اقتحام خطوط المسلمين فحمل بكل رجاله على القوات التي يقودها تقي الدين بن أخي صلاح الدين، فأفسح له تقي الدين الصفوف حتى إذا نفذ ريموند منها بفرسانه سد تقي الدين هذه الثغرة فلم يستطع العودة إلى رفاقه، فركبوا من ساحة القتال وقد استبد بهم البؤس، واتخذوا طريقهم إلى طرابلس. ولم يلبث باليان بلين وورينا لد سيد صيدا أن شقا لهما بعد فترة قصيرة طريقاً إلى خارج أرض المعركة فكانا آخر من هرب.

وأخيراً هوت خيمة ملك الفرنجة الحمراء من على قرني جبل حطين فسجد صلاح الدين على الأرض، وقد امتلأت عيناه بالدمع فرحاً جدلاً وأخذ يشكر الله ويحمده. [2]

---

(1) مصدر سبق ذكره ص 739 .

(2) المصدر نفسه ص 741.

قتل في هذه المعركة من الفرنجة ثلاثون ألفا من شجعانهم وفرسانهم، رؤى بعض الفلاحين وهو يقود نيفا وثلاثين أسيراً قد ربطهم في طنب خيمته وباع منهم واحداً بنعل لبسه في رجله. فقيل له في ذلك، فقال: أحببت أن يقال باع أسيراً بمداس، وجلس السلطان لعرض أكابر الأسارى، فأول من قدم إليه مقدم الداوية، وعدة كثيرة منهم ومن الإسبتارية، وأحضر الملك - جاي – وأخاه جفري وأود صاحب جبيل وهنري والبرنس أرناط صاحب الكرك، وهو أول من أسر، وكان السلطان قد نذر دمه، وأقسم أنه إذا ظفر به يعجل بإتلافه، لأنه كان قد عبر به بالشوبك قوم من الديار المصرية في حال الصلح، فغدر بهم وقتلهم. فنشدوه الصلح الذي بينه وبين المسلمين، فقال ما يتضمن الاستخفاف بالنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وقصد المسير إلى المدينة ومكة المشرفة، وبلغ ذلك السلطان فحملته الحمية الدينية على أن نذر دمه.

ولما فتح الله عليه وجلس بدهليز خيمته، لأنها لم تكن قد نصبت بعد، وعرضت عليه الأسرى، فلما حضر بين يديه أجلسه إلى جانب الملك،والملك بجانب السلطان، وقرّعه على غدره وقصده الحرمين الشريفين، وذكره بذنبه من حلفه وحنثه ونقضه العهود والمواثيق، فقال الترجمان: إنه يقول: قد جرت بذلك عادة الملوك، وكان الملك (جاي) يلهث من الظمأ، فآنسه السلطان، وسكن رعبه، وأتى بماء مثلج وشرب منه، ثم ناوله البرنس، وأخذه من يده فشربه الملعون، فقال السلطان للملك: إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فيكون أماناً له.

ثم نصبت له الخيام، فلما جلس في خيمته أحضر البرنس، فلما أقبل عليه أوقفه بين يديه وقال له: ها أنا أنتصر لمحمد منك، ثم عرض عليه الإسلام، فلم يقبل فبادرة وضربه بالسيف وصرعه، ثم أمر برأسه فقطع، وجر برجله قدام الملك. فارتاع وانزعج، فعرف السلطان منه ذلك واستدعاه، وأمنه وطمأنه، وقال: لما غدر غدرنا به لأنه تجاوز الحد وتجرأ على ألأنبياء، (صلوات الله عليه وسلامه).

أمّا الصليب الأعظم عندهم، فإن المسلمين استولوا عليه يوم المصاف، ولم يؤسر الملك حتى أخذ صليب الصلبوت، وهو الذي إذا رفع ونصب سجد له كل نصراني وركع،وهم يزعمون انه الخشبة التي صلب عليها معبودهم. وقد غلفوه بالذهب وكللوه بالجوهر،وكان أخذه عندهم أعظم من أسر الملك، وعظمت مصيبتهم بأخذه [1].

ولسنا في هذا المقام بصدد الإسهاب في تفاصيل الحروب الصليبية، بل ما يهمنا هو الطريق إلى بيت المقدس، وكيف أن المسلمين قد عملوا ما بوسعهم لإعادتها إلى دار الإسلام، وكفّ أذى أهل الكفر عنها والطغيان، لأنها أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، فتم بعد هذا النصر المؤزر فتح عكا مستهل

(1) -مجير الدين الحنبلي، مصدر سابق ج2 ص، 322 .

جمادى الأولى من نفس السنة، وجعلت الكنيسة العظمى فيها جامعا، ورتب فيها القبلة والمنبر، كما فتحت الناصرة وصفورية وقيسارية ونابلس، وفتحت العفولة وتبنين وصيدا وبيروت فجبيل فعسقلان فغزة والرملة والداروم، وكان ممن استشهد على عسقلان من الأمراء الكبار، إبراهيم بن حسين المهراني وهو أول أمير أستشهد.

وكان السلطان قد أخذ في طريقه إليها الرملة ويبنا وبيت لحم والخليل، وأقام بها حتى تسلم حصون الداروم وغزة واللطرون وبيت جبريل، واجتمع بالسلطان ولده صاحب مصر العزيز عثمان بعسقلان، فقرت عينه بقدومه، واعتضد به، وكان قد استدعى الأساطيل فحضرت والحاجب لؤلؤ مقدمها، وشرع بقطع الطرق على سفن العدو ومراكبه ويقف لهم في جزائر البحر.

إذن استطاع المسلمون بقيادة هذا البطل الكبير، أن يمخروا من بلاد الشام، فنهر الأردن فطبريا إلى حطين،فالمدن الساحلية إلى أعالي الجبال، وأوصلوا الشام بمصر، وأحاطوا ببيت المقدس إحاطة السوار بالمعصم.

المطلب الخامس: صلاح الدين على مشارف بيت المقدس

كانت خطة صلاح الدين من جميع هذه الحروب التي خاضها على الجبهتين الداخلية والخارجية، وذلك الحلم الذي كان يؤرقه، ألا وهو إعادة فتح بيت المقدس، وتحريرها من ربقة الصليبيين الغزاة، وإعادتها إلى كنف المسلمين، فيحرر الأراضي المسلمة، ويعيدها بيضاء طاهرة خالية من رجس الصليبيين، لقد قام صلاح الدين باتخاذ جميع الاحتياطات والتدابير اللازمة من أجل تحرير بيت المقدس، ومن هذه التدابير ما يلي:

أولاً: من المعلوم أنه كان يعترض هذا القائد الفذ العديد من المشاكل الداخلية والخارجية والحدودية. وبذلك فقد استطاع أن ينهي جميع الخلافات الداخلية، ويؤمن الحدود الخارجية، ويقضي على جميع من تسول له نفسه بإيذاء وحدة المسلمين.

ثانياً: قام هذا القائد الملهم بتوحيد الصفوف ورص الجبهة الداخلية.

ثالثاً: وحّد الأقطار الإسلامية المحيطة ببيت المقدس وصهرها في بوتقة الوحدة الإسلامية، ذات الطابع السني الواحد، سواء في البلاد المصرية أو الشامية.

رابعاً: أمّن جميع الطرق المؤدية إلى بيت المقدس من الصليبيين، وحمى الثغور وراقب الحدود البحرية، خشية الإمدادات الفرنجة.

يقول ابن الأثير في كتابه الكامل " لما فرغ صلاح الدين من أمر عسقلان، وما يجاورها من البلاد، أخرج الأسطول الذي بها في جمع من المقاتلين، ومقدمهم حسام الدين لؤلؤ الحاجب، وهو المعروف

بالشجاعة والشهامة ويمن النقيبة، فأقاموا في البحر يقطعون الطريق على الإفرنج، كلما رأوا له فيه مركباً، غنموه وشانيا أخذوه، فحين وصل الأسطول وخلا سره من تلك الناحية، سار من عسقلان إلى بيت المقدس"[1]

لقد كانت هناك العديد من الدوافع التي تجول في خاطر هذا القائد الكبير، من أجل تحرير بيت المقدس، وأن هذه الأفكار التي كانت تراوده، كانت تراكمات، فكان القادة السابقون من آل زنكي الذين أوكلوا إليه القيادة واختاروه لهذا المركب الصعب، فكان اختيارهم له عند حسن الظن عندما سار على نهجهم واقتفى أثرهم، فقد أعد العدة وهيأ الأسباب وأخذ بجميع وسائل الحيطة والحذر، علاوة على إيمانه الشديد بعدالة قضيته، وأن جميع ما خاضه من الحروب ما هو إلا خطوات على طريق تحرير بيت المقدس.

مما ألهب عواطف صلاح الدين وزاد في الإسراع نحو هذا الهدف المنشود، تلك الرواية التي أوردها مجير الدين الحنبلي ومفادها " أن السلطان لما كثرت فتوحاته في السواحل، وأوجع فيهم بسهامه وسطوته، وكان لا يتجاسر على فتح بيت المقدس لكثرة ما فيه من الأبطال، والعدة لكونه كرسي دين النصرانية، وكان في بيت المقدس شاب مأسور من أهل دمشق، كتب هذه الأبيات وأرسل بها إلى الملك صلاح الدين على لسان القدس فقال:

يـــا أيهـــا الملـــك الـــذي لمعـــالم الـــصلبان نكّـــس
جـــاءت إليـــك ظلامـــة تـــسعى مـــن البيـــت المقـــدس
كـــل المـــساجد طهـــرت وأنـــا علـــى شـــرفي مـــنجس

فكانت هذه الأبيات هي الداعية له لفتح بيت المقدس، ويقال أن السلطان وجد في ذلك الشاب أهلية فولاه خطابة المسجد الأقصى المبارك.[2]

ومهما يكن، فإن صلاح الدين قد أعد العدة وهيأ الجند لخوض المعركة الفاصلة،ووضع نصب عينية تحرير بيت المقدس من ربقة الغزاة.

---

(1) الشيباني، محمد بن محمد بن الواحد 0(ابن الأثير)، الكامل في التاريخ،ط2،دار الكتب العلمية،1995، ص154.

(2) مجير الدين الحنبلي، مصدر سابق، ص 319 ط2 .

المطلب السادس: تحرير بيت المقدس

دخلت بيت المقدس تحت عناوين رئيسة في تاريخها الإسلامي، فكان الفتح الروحي لبيت المقدس منذ اللحظة التي وطئت فيها قدما رسول الله (ﷺ) أرضها ليلة أسري به من مكة المكرمة إلى بيت المقدس، وعرج منها إلى السماوات العلى، وكان الفتح العمري لهذه المدينة المقدسة على يدي الخليفة العادل عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عام 15 هـ ودخول المسلمين هذه الديار، وتم تحريرها على يدي القائد المجاهد صلاح الدين الأيوبي من الصليبيين.

ففي يوم الأحد الموافق 15 رجب سنة 583 هـ وفق 1187 م وصلت طلائع جند صلاح الدين إلى الجهة الغربية من بيت المقدس.

لدى تطويق المدينة انقسم أهلها إلى قسمين: قسم استجاب لنداء صلاح الدين بتسليم المدينة سلماً، في أمن سكانها على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم ومقتنياتهم، وقسم آخر بث فيه الملك باليان الثاني روح المقاومة، وألا يستسلموا للمسلمين قائلين: (إننا لا نسلم المدينة التي مات فيها السيد المسيح منقذ الخليقة)[1]

ولهذا فقد كان ردهم بأن الموت أيسر عليهم من تسليم المدينة للمسلمين.00 لكن هذا الموقف لم يكن موقف المسيحيين الأرثوذوكس الشرقيين، إذ أنهم كانوا يشعرون بالحنين إلى ممارسة شعائرهم الدينية بحرية تامة وبلغتهم، فهم ما برحوا منذ قدوم الإفرنج الصليبيين يشهدون طقوسا لاتينية لا يفقهونها، ولما وثق صلاح الدين بالعالم الأرثوذوكسي (يوسف بابيط) اتخذه مستشاراً، وقد نقل له ترحيب الأرثوذوكس العرب بقدومه واستعدادهم للمساهمة)[2]

تناهى إلى مسامع صلاح الدين هذين الموقفين المتباينين، فعزم على أخذ هذه المدينة بحد السيف، وأصبح حاله بين أمرين: إما إعمال السيف واستعمال القوة مع هؤلاء القوم الذين رفضوا الإذعان والاستسلام، وإما الوقوف على أبواب بيت المقدس ينتظر ما يعمله الفرنجة.

---

(1)ول ديورانت، قصة الحضارة،تعريب محمد بدران مطبعة لجنة التأليف والنشر، سنة 1975 م0م4، ج4، ص37.

(2) بيان نويهض الحوت، مصدر سابق، ص 122 .

المطلب السابع: تحرير القدس ليلة الإسراء والمعراج الجمعة 27 رجب 583 هـ/1187 م

"تتجلى عبقرية صلاح الدين العسكرية في خطته العسكرية التي اتبعها في جهاده ضد الصليبيين لتحرير بيت المقدس، فقد قامت خطته على تكوين الجبهة الإسلامية الموحدة من بلاد الشام والعراق ومصر، ثم تحديد الزمان والمكان لمعركة حطين، وإنزال الهزيمة الساحقة بالصليبيين، وليضمن الاستقرار التام للقدس، بمنع وصول المساعدات البحرية والبرية لها، وقطع كل الأمل لهم للسيطرة على المدن الساحلية في بلاد الشام، طلب من الأسطول الإسلامي بقيادة الحاجب لؤلؤ المحافظة على هذه الموانى، ثم قام بحملة إعلامية إلى كافة العالم الإسلامي لاستنفارهم للجهاد من أجل تخليص بيت المقدس، ثم استدعى القوات الإسلامية التابعة له، فتجمعت لديه، وأحضر أدوات الحصار الكافية لاقتحام الأسوار، من منجنيقات وعرادات ونفاطات وقطاعات.

لم يبق أمامه إلاّ إعداد العدّة لمهاجمة المدينة وأخذها عنوة، فبقي صلاح الدين خمسة أيام يطوف حول المدينة ينظر من أين يقاتل، لأنها مدينة في غاية الحصانة والامتناع، فلم يجد عليها موضع قتال إلا من ناحية الشمال، نحو باب العمود، أو باب كنيسة صهيون، فانتقل إلى هذه الناحية في العشرين من رجب، ونزلها ونصب تلك الليلة المنجنيقات فأصبح من الغد وقد فرغ من نصبها ورمى بها، ونصب الفرنجة على سور البلد منجنيقان ورموا بها، وقوتلوا أشد قتال ما رآه أحد من الناس، كل واحد من الفريقين يرى ذلك ديناً وحتماً وواجباً.

فلما أشتد القتال نقب المسلمون أسوار المدينة، وأتفق رأي الصليبيين على طلب الأمان وتسليم المدينة إلى صلاح الدين، فأرسلوا له وفداً يعرض عليه استلام المدينة فأجابهم، قائلا: لا افعل بكم إلا كما فعلتم بأهله، حين ملكتموه سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة من القتل والسبي وجزاء السيئة بمثلها، فلما رجعوا خائبين محرومين أرسل باليان بن بيرزان وطلب الأمان لنفسه. (1)

بدأت المعركة الحاسمة، التي كان من نتائجها اقتحام قوات صلاح الدين أسوار المدينة والدخول إليها، لكنه لم يفعل بهم كما فعلوا بالمسلمين عندما احتلوها، وكان فتحه لهذه المدينة يوم الجمعة الموافق 27رجب 583 / 12تشرين أول 1187م. "(2)

ونسلّم الآن وصف الحال إلى قلم العماد الكاتب الأصفهاني، فيحدثنا بأسلوبه السجِع عن هذا الواقع، قائلا في هذا الفتح:

---

(1) ابن الأثير،مصدر سابق، ج 10 ص 155.

(2) بيضون، الدكتور جميل، الدكتور أحمد عودات، الدكتور شحادة الناطور، تاريخ المشرق الإسلامي من القرن الخامس حتى القرن السابع الهجري.،اربد : دار الأمل للنشر والتوزيع، 1989م، ص 172.

"كان في القدس حينئذ من الفرنجة ستون ألف مقاتل من سائف ونابل، وبطل وباطل، وعاسل بالعاسل، قد وقفوا دون البلد يبارزون ويحاجزون، ويعاجزون ويناجزون، ويرمون ويدمون ويحّمون ويحمون، ويحقدون ويحتدمون، ويضطربون ويضطرمون، ويذودون ويذبون، ويشبون ويسبون، ويصرخون ويحرضون، ويلهثون ويتغوثون، ويلوذون ويلوبون، ويجوبون ويجولون، ويقدمون ويحجمون، ويتململون ويألمون ويتعاوون ويتضاغون ويحترقون للبلايا ويقترحون المنايا، وقاتلوا أشد قتال، وناضلوا أحد نضال، ونازلوا أجد نزال، وطافوا بصحاف الصفاح لإرواء الطبا الظماء من ماء الأرواح، وجالوا بالأوجال، وأبالوا قداح الآجال، وصالوا لقطع الأوصال، والتهموا والتهبوا، وأشبوا ونشبوا واستهدفوا للسهام، واستوقفوا للحمام."[1]

ومن الأوصاف النادرة لتحرير بيت المقدس على يدي المجاهد صلاح الدين ما ورد على لسان ابن الأثير قائلا " فاستقر أن يؤخذ من الرجل عشرة دنانير يستوي فيه الغني والفقير، ويزن الطفل من الذكور والبنات دينارين، وتزن المرأة خمسة دنانير، فمن أدى ذلك إلى أربعين يوماً فقد نجا ومن انقضت الأربعون يوماً عنه، ولم يؤد ما عليه فقد صار مملوكا فبذل باليان بن بيرزان عن الفقراء ثلاثين ألف دينار، فأجيب إلى ذلك وسلمت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب، وكان يوماً مشهوداً ورفعت الأعلام الإسلامية، على أسوارها ورتب صلاح الدين على أبواب البلد في كل باب أميناً من الأمراء، ليأخذوا من أهله ما استقر عليهم فاستعملوا الخيانة، ولم يؤدوا فيه أمانة واقتسم الأمناء الأموال، وتفرقت أيدي سبا، ولو أديت فيه الأمانة لملء الخزائن، وعم الناس فإنه كان فيه من الضبط ستون ألف رجل، ما بين فارس وراجل سوى من يتبعهم من النساء والولدان، ولا يعجب السامع من ذلك، فإن البلد كبير، واجتمع إليه من تلك النواحي من عسقلان وغيرها والداروم والرملة وغزة وغيرها من القرى، بحيث امتلأت الطرق والكنائس، وكان الإنسان لا يقدر أن يمشي، ومن الدليل على كثرة الخلق، أن أكثرهم وزن ما استقر من القطيعة، وأطلق باليان بن بيرزان ثمانية عشر ألف رجل وزن عنهم ثلاثين ألف دينار وبقي بعد هذا جميعه من لم يكن معه ما يعطي، وأخذ أسيرا ستة عشر ألف آدمي، ما بين راجل وامرأة وصبي هذا بالضبط واليقين، ثم إن جماعة من الأمراء ادعى أن كل واحد منهم، أن جماعة من رعية إقطاعه مقيمون بالبيت المقدس فيطلقهم، ويأخذ هو قطيعتهم، وكان جماعة من الأمراء يلبسون الفرنجة، زي الجند المسلمين، ويخرجونهم، ويأخذون منهم قطيعة قرروهما، واستو هب جماعة من صلاح الدين عددا من الفرنجة، فوهبهم لهم فأخذوا قطيعتهم وبالجملة، فلم يصل إلى خزائنه إلا القليل، وكان بالقدس بعض نساء الملوك من الروم، وقد ترهبت وأقامت به ومعها من الحشم

(1) الأصفهاني،العماد الكاتب، مصدر سابق، ص 125.

والعبيد والجواري خلق كثير، ولها من الأموال والجواهر النفيسة شيء عظيم، فطلبت الأمان لنفسها ومن معها فأمّنها وسيّرها، وكذلك أطلق ملكة القدس التي كان زوجها الذي أسره صلاح الدين قد ملك الفرنجة بسببها ونيابة عنها،كان يقوم بالملك وأطلق مالها وحشمها، واستأذنته في المسير إلى زوجها، وكان حينئذ محبوساً في قلعة نابلس، فأذن لها فأتته، وأقامت عنده وأتته أيضا امرأة للبرنس أرناط صاحب الكرك، وهو الذي قتله صلاح الدين بيده، يوم المصاف بحطين فشفعت في ولد لها مأسور، فقال لها صلاح الدين: إن سلمت الكرك أطلقته، فسارت إلى الكرك، فلم يسمع منها الفرنجة ولم يعلموه، فلم يطلق ولدها ولكنه أطلق مالها ومن تبعها، وخرج البطرك الكبير الذي للفرنجة ومعه من أموال البيع منها الصخرة والأقصى وقمامة وغيرها، ما لا يعلمه إلا الله تعالى، وكان له من المال مثل ذلك فلم يعرض له صلاح الدين، فقيل له ليأخذ ما معه يقوّي به المسلمين، فقال لا أغدر به، ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير، وسيّر الجميع ومعهم من يحميهم إلى مدينة صور.[1]

هذا الموقف كان على جانب الصليبيين الذين كانوا بالأمس قساة القلوب، وعملوا بالمسلمين ما عملوا عندما احتلوا بيت المقدس، أما على الجانب الآخر، فقد كان هناك أسرى المسلمين، البالغ عددهم خمسة آلاف، فقد أمر بجمعهم وكسائهم والإحسان إليهم وأطلقهم، وعادوا إلى ذويهم بعد معاناة وحرمان.[2]

وقد غدا تحرير بيت المقدس على ألسنة الأدباء والكتاب والشعراء والمؤرخين، فأجادوا في المقارنة بين عهد التحرير ألصلاحي لبيت المقدس، وبين ما ارتكبه الصليبيون من مجازر بحق المسلمين عندما احتلوها، ومن هنا لا بد لنا من أن نستعرض ما جاء على ألسنة مؤرخيهم وكتابهم الذين وصفوا هذا القائد الكبير، بحسن الأدب والمعاملة الحسنة في حال المقدرة، وأنه لم يجازي السيئة بمثلها، بل جازى الإساءة بالإحسان، وهذا الخلق الرفيع كان تربية إسلامية نشأ عليها هذا القائد الكبير.

المطلب الثامن : يوم بيوم في شهادات مؤرخيهم

لنقف قليلاً، لنقارن يوم الإحتلال الصليبي لبيت المقدس، وما جرى في هذا اليوم الرابع عشر من شهر يوليو حزيران 1099م، من فظائع يندى له جبين البشرية من مذابح وفظائع وكوارث يوم أسود في تاريخ الصليبيين الحاقدين الذين ما زالوا حتى أيامنا هذه يخجل الشرفاء منهم، من أعمالهم في بيت المقدس، من تقتيل وهتك ومذابح، صبيحة يوم الجمعة السابع والعشرون من شهر رجب الخير سنة 583

---

(1) ابن الأثير،مصدر سابق.

(2) الشافعي، كمال الدين المقدسي، مخطوط إتحاف الإخصاب بفضل المسجد الأقصى رقم 407 رقم التصوير ف 182 ص 79 .

هـ وفق 2 أكتوبر عام 1187م الذي يقابله قبل ثمانية وثمانين عاما، فقد تم تحرير القدس على يدي القائد الملهم صلاح الدين، وما قام به من عطف وتسامح وإكرام للغزاة، وبإمكانه أن يفعل بهم كما فعلوا، لكن العفو عند المقدرة، هو من شيم الإسلام وأخلاق الكرام.

ويقول ول ديورانت: نقلا عن بعض معاصريهم لتلك الحملات، "إن النساء كن يقتلن طعنا بالسيوف والحراب، والأطفال الرضّع يخطفون من أحضان أمهاتهم، ويقذف بهم من فوق الأسوار، أو تهشم رؤوسهم بدقها بالعمد، وذبح المسيحيون ألفا من المسلمين الذين بقوا في المدينة،أما اليهود الذين بقوا أحياءً فقد سيقوا إلى كنس لهم وأشعلت فيهم النيران وهم أحياء "[1]

أما ستيفن رنسيمان فيقول: " الواقع أن المسلمين الظافرين اشتهروا بالاستقامة والإنسانية، فبينما كان الفرنجة منذ ثمان وثمانين سنة يخوضون دماء ضحاياهم، لم تتعرض الآن داراً من الدور للنهب، ولم يحل بأحد من الأشخاص مكروه، إذ صار رجال الشرطة، بناء على أوامر صلاح الدين، يطوفون بالشوارع والأبواب ويمنعون كل اعتداء يقع على المسيحيين، وفي تلك الأثناء حرص كل مسيحي على أن يلتزم المال اللازم لافتدائه. وأخذ باليان كل ما في بيت المال من الأموال لدفع ما وعد به من أموال الافتداء، وقدرها ثلاثون ألف دينار ولم يخرج الإسبتارية والداوية عن شيء أموالهم إلا بصعوبة، ولم يحفل البطريرك وهيئته الكنسية إلا بأنفسهم، ودهش المسلمون حينما رأوا البطريرك هرقل يؤدي عشرة دنانير. مقدار الفدية المطلوبة منه، ويغادر المدينة، وقد انحنت قامته لثقل ما يحمله من الذهب، وقد تبعته العربات التي تحمل ما بحوزته من الطنافس، والأواني المصنوعة من المعادن النفيسة، وبفضل ما تبقى من منحة الملك هنري الثاني، تقرر إطلاق سراح سبعة آلاف من الفقراء، وقد كان يصح أن ينجو من الاسترقاق ألوف عديدة من المسيحيين لو أن الداوية والإسبتارية والكنيسة كانوا أكثر سخاء. ولم يلبث أن تدفق من أبواب المدينة طابوران من المسيحيين، تألف الأول من أولئك الذين افتدوا أنفسهم، أو تمّ افتداؤهم بفضل جهود باليان، أما الطابور الثاني فشمل أولئك الذين لم يستطيعوا افتداء أنفسهم، ولذا توجهوا إلى الأسر، ومن المناظر التي تدعو إلى الأسى والحزن، ما حدث من التفات العادل إلى أخيه صلاح الدين يطلب منه إطلاق سراح ألف أسير، على سبيل المكافأة عن خدماته له، فوهبهم له صلاح الدين، فأطلق العادل على الفور سراحهم،وإذ ابتهج البطريرك هرقل لأن يلتمس هذه الوسيلة الرخيصة لفعل الخير، لم يسعه إلا أن يطلب من صلاح الدين سبعمائة أسير، كما جعل صلاح الدين لباليان خمسمائة أسير، ثم أعلن صلاح الدين أنه سوف يطلق سراح كل شيخ، وكل امرأة عجوز. ولما أقبل نساء الفرنجة اللاتي افتدين أنفسهن، وقد امتلأت عيونهن بالدموع، فسألن صلاح الدين أين يكون

(1) ول ديورانت، مصدر سابق، م4 ص 25 .

مصيرهن، بعد أن لقي أزواجهن أو آباؤهن مصرعهم أو وقعوا في الأسر، أجاب بأنه وعد بإطلاق سراح كل من في الأسر من أزواجهن، وبذل للأرامل واليتامى من خزائنه العطايا كل بحسب حالته، والواقع أن رحمته وعطفه كان على نقيض أفعال الغزاة المسيحيين في الحملة الصليبية الأولى."[1]

ويقول روم لاندر: "لكن موقف صلاح الدين يغاير تغايراً جاداً المذابح التي ارتكبها النصارى قبل ثمانية وثمانين عاما... لقد احتل صلاح الدين المدينة احتلالاً نظامياً وإنسانياً لم يؤذ أحداً فيه من النصارى. ولم ينهب خلاله أيا من البيوت، وجمع القادرون من النصارى المقادير من المال فاشتروا به حريتهم الكاملة"[2]

ويقول فوسديك – المؤرخ الغربي – "لاشك في أن الصليبيين قد اقترفوا بالأرض المقدسة خطيئات لا تغفر، مخالفين بذلك الأهداف السامية التي حفزتهم لافتتاحها، وأنهم قد انحطوا إلى درجة في التهتك الممزوج بالأنانية والحقد وسفك الدماء، فانقلب جهادهم إلى نهب وسلب وقتل وتدمير حتى أنهم في أنطاكية وفي طريقهم إلى بيت المقدس اقترفوا أفظع إثم دوّنه التاريخ في سجل السكر والدعارة والفجور، إذ كانوا يضعون أجساد المسلمين في أسياخ حديدية ويشوونها على النار، وأما ما فعلوه في بيت المقدس حينما احتلوها في سنة 493 هـ الموافق 15 تموز سنة 1099 م فحّدث عنه ولا حرج، فقد عملوا في المسلمين الذبح والتقتيل ثلاثة أيام صحاح دون رحمة ولا روية، ولم يميزوا بين رجل وامرأة أو بين صغير وكبير، وأنهم لم يغمدوا سيوفهم إلا بعد أن خمدت نار الانتقام المتأججة، والغريب أنهم قاموا بهذه الأعمال التي تقشعر منها الأبدان باسم السيد المسيح، الأمر الذي جعل الشرق يستقبل صلاح الدين بالترحاب، ويعتبره منقذاً ورحيماً، وراح الشرق يتنفس الصعداء، عندما طرد الصليبيون من الأرض المقدسة، وساد الاعتقاد بأنه ما كان يصيبهم وما أصابهم لولا أنهم يستحقون هذا المصير، ومع ذلك فكان الناس يذكرون بالثناء والتمجيد للمعاملة الحسنة التي لقيها الصليبيون من صلاح الدين، بعد تلك الآثام التي اقترفوها سيما عندما أمنّهم على أموالهم وأرواحهم."[3] والمجال هنا يطول لو تتبعنا شهادات المؤرخين الغربيين في الثناء على صلاح الدين وعدله، ولكننا نكتفي بهذا القدر، ليظل تاريخنا الإسلامي مشرقاً بهؤلاء الخالدين وأمثالهم ممن تربوا على مائدة الإسلام.

---

(1) ستيفن رنسيمان، مصدر سابق، ص 753.

(2) العريان،محمد سعيد، قصة الكفاح بين العرب والاستعمار 0 نقلا عن الحروب الصليبية ص 126 .

(3) Harry Emerson Fosdik – Apilgrimage to Palestine p.256 .

المطلب التاسع: فصل من مأساة التاريخ الذي أعاد نفسه على هذه الأمة .....!!!!

ما كانت الأحداث التي عاصرناها مجرد الصدفة، بل أنها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بما كان وما خطط إليه أعداء هذه الأمة، ونجحوا في تنفيذها ببرنامج زمني وبدقة متناهية، وأحداث لا تغيب عن البال، فالتاريخ الماضي بواقع هذه الأيام كالمرآة العاكسة تشاهد فيها وقائع الأحداث وكأنها على شريط يمر أمامك، فما أشبه اليوم بالبارحة!

شاءت الأقدار أن نعاصر الأحداث الجسام التي تمر بها أمتنا، هذه الأيام، وما خطط إليه الغرب واستهدفه من هجمة شرسة على هذه الأمة، وكان على رأس هذه الهجمة الشرسة الولايات المتحدة الأمريكية وعضيدتها بريطانيا، التي بدأت تستعيد ذكرياتها، لتحقق لها أمجاداً استعمارية كانت قد فقدتها، وكنا قد نوهنا في مطلع كتابة هذا البحث، إلى المخاطر التي تحدق بالأمة، وكأننا على موعد مع القدر، الذي جعلنا نلتقط أنفاسنا، فتحدث الهجمة العدوانية الشرسة لتعيد للحروب الصليبية ذكرياتها، وتخترق الأمة في حرب حشدت لها أمريكا وبريطانيا أحدث الأسلحة لتدمر هذه الأمة وآمالها وطموحاتها فكان ما كان.

حشدت أمريكا وبريطانيا بدوافع استعمارية جديدة، وبتأليب صهيوني حاقد، كل ما أنجزته ترسانتها من الأسلحة الفتاكة، وأمام أعين العالم وبصره، دون وازع من دين، أو تأليب من ضمير، ووقف أحرار العالم في مشارق الأرض ومغاربها، يعارضون هذه الحرب المدمرة على الشعب العراقي، ووقفت الأمم المتحدة وانشق مجلس الأمن على نفسه، وعارض أنصار هذه الحرب أنصار السلام، ومعسكر العقل، بيد أن أنصار السلام لم يفلحوا في وقف جماح هذه الحرب، التي لا مبرر لها،والتي اختلقوا لها أسماء ومسميات لا أساس لها من الصحة، كنظرية أسلحة الدمار الشامل التي يملكها العراق على حد تعبيرهم رغم التأكيدات من الجانب العراقي بأنه لا يملك هذه الأسلحة، وبالرغم من تأكيدات فرق التفتيش الدولية التي عملت أشهراً عدة في العراق، وقامت بجميع إمكانياتها المتفوقة بالبحث والتنقيب وإجراء الاختبارات على الأرض والتربة والمياه وغيرها، فلم يعثروا على أي دليل يدين العراق بامتلاكها.

بحث المعتدون عن ذريعة ثانية، وهي عدم انتشار الديمقراطية في العراق، وكأنهم أحرص من أهل العراق على شعبهم، فكانت كل المبررات لهذه الحرب واهية، وفي المقابل، فإن دول العدوان حشدت أساطيلها البرية والجوية والبحرية لمهاجمة هذا البلد العربي، الذي يمثل العمق الإستراتيجي للأمة العربية،والذي يحوي على أكبر ثاني احتياطي نفط العالم، والذي يقع في قلب العالم العربي والإسلامي، والذي يمثل مركزاً حساساً لما يتوفر فيه من علماء وخبراء،كل هذه الأسباب لم تكبح جماح

المعتدين من السير في تنفيذ مخططاتهم العدوانية، ضاربين عرض الحائط الأعراف والقوانين الدولية، في سبيل تنفيذ مآربهم، فكان ما كان من شن الحرب غير المتكافئة على بلد فرض عليه الحصار الاقتصادي مدة اثني عشر عاما، لماذا؟ ! لأنه عارض السياسة الجائرة ووقف أمام الهجمة والغطرسة المحمومة.

بدأ العدوان الأنجلو أمريكي الصهيوني، على العراق في السابع عشر من شهر نيسان عام 2003 م، واستطاعت قوى الشر أن تحقق أهدافها الإستراتيجية، بيد أنها لم تصل إلى هزيمة الروح المعنوية لهذه الأمة، فقامت بتدمير الإنسان والتراث والتاريخ والحضارة، ولم تراعي الدساتير والأعراف الدولية والأخلاقية في هذه الحرب، بل وزجت فيها بجميع أنواع الأسلحة المتقدمة لذبح هذا الشعب، وقدراته، وقيادته، من أجل تعريته أمام العالم،والوصول إلى احتلال بلاده، وامتصاص ثرواته، واستنزاف خيراته وإعادة استعماره من جديد، وفرض إرادتها على شعوب المنطقة المجاورة، إرضاء للأهواء الشريرة والصهيونية العالمية.

إنها الصدمة الكبرى التي أفاق عليها عالمنا العربي والإسلامي والعالم بأسره، فالعالم العربي خسر آخر سهم في جعبته، فكان الانهيار الرهيب الذي أودى بهذه الأمة ومقوماتها ومقدراتها،والذي فوجئ به، والذي ما كان يتوقعه، ولا أن يصل إليه يوماً في عصرنا ولا في أي عصر من العصور، والذي يجب أن يعيد فيه عالمنا العربي حساباته من أولها،أما خسارة العالم الإسلامي، فلم تكن بأقل من العالم العربي، لأن الهم والقضية واحدة، أما العالم فقد خسر بمواقفه المؤيدة للحق والعدل ولم يستطع أن يكبح جماح المعتدين، فتبين أن لهذه الحرب أهدافاً ثقافية واقتصادية مآلها تجيير ثروات هذه الوطن إلى الحليفين الإستراتيجيين أمريكا وبريطانيا، حتى تتحكم هذه القوى في الآلة الحركية العالمية، وتكون مصادر الطاقة في يد أمريكا على وجه الخصوص، ومن بعدها بريطانيا،ومن هنا فإن العقل يحتار والقلم يتوقف والأفكار تتجمد في هذا الفصل من حياة البشرية،لنشاهد هيمنة القطب الأوحد على الشعوب، ومقدراتها، لترسل للعالم بأسره رسالة واضحة وجلية بأن الاستعمار الجديد – أمريكا وأعوانها من ذيول الصهيونية – وأن العالم بأسره مهدد، ولا أحد ينهض أو يرفع رأسه إلا تحت الهيمنة الأمريكية.والكلام هنا يطول ....

ومن هنا تسقط القدس ... وبعدها تسقط بغداد، ويسقط آخر حصن من حصون العرب المسلمين الذين رفضوا الهيمنة الأمريكية والوجود اليهودي في ديار المسلمين، ليبدأ فصل جديد لهذه الأمة التي يجب عليها أن تعيد كتابة تاريخها من جديد، في هذا الوقت الذي تسقط فيه عواصم عربية وإسلامية، كنا نتحدث عن سقوط القدس على أيدي الصليبيين في العصور الوسطي، والآن وبعد الاستعدادات الكبرى التي قام بها المخلصون من أبناء هذه الأمة، تعود القدس التي حكمها الصليبيون لمدة تربو على التسعين عاما إلى حضن العالم الإسلامي.

وهنا فإن من يكتب في هذه الظروف عن هذا الموضوع أو غيره، بل ومن يستعيد أمجاد أمته فإنه كمن يمشي في حقل من الأشواك أو كمن يخلع أضراسه ضرساً ضرساً لهول الفاجعة التي ألمت بالعالم العربي والإسلامي من الفواجع المتراكمة التي توالت على عالمنا المعاصر فما أشبه اليوم بالبارحة،ولأن العقل أصبح حائرا في زمن التردي الذي فقدت فيه أمتنا مقوماتها وأصبحت نهبا سائغا لغيرها من شعوب الأرض.

إن العودة إلى الكتابة عن القدس واجب ديني ووطني،يحتم على الإنسان أن يسير فيه لتبيان الحقيقة، وإبراز أهمية هذه المدينة الخالدة في نفوس العرب والمسلمين، لتبقى عالقة في أذهانهم إلا أن يتم إعادتها إلى أصحابها الشرعيين، ولنأخذ من هذه الأحداث الدروس والعبر، وألا نيأس أو ينساب الخوار والوهن إلى نفوسنا فنصبح أمة محبطة لا حول لها ولا قوة، بل يجب علينا أن نعيد النظر في جميع إستراتيجياتنا وخططنا وواقعنا ومفاهيمنا وأن نبني سياسة جديدة ونعود لكتابة تاريخنا بأسطر من نور من بدايته الحديثة وهذا حال الدنيا.

حال أن وطئت قدما هذا القائد الكبير بيت المقدس، توجه إلى البقعة المقدسة، إلى المسجد الأقصى المبارك وإلى الصخرة المشرفة، أخذ يزيل شعثهما ويرفع الأذى عنهما وكان على رأس أولويات ما قام به هو إزالة الصليب، الذي كان على الصخرة المشرفة، حيث انفجرت في هذه اللحظة الأصوات من كلا الطرفين، المسلمون بالتهليل والتكبير والنصارى بالفجور والنحيب، لأنهم فقدوا عزهم الذي بنوه لعشرات السنين، فعز عليهم أن ينهار هذا العز الذي عايشوه والآن فقدوه.

المبحث الثاني

المطلب الأول: الأعمال التي باشر بها صلاح الدين في القدس

التسامح الديني والعفو الشامل عن الضعفاء والمساكين من النصارى الذين استسلموا للمسلمين.

أ - حدد صلاح الدين الفدية عشرة دنانير شامية عن كل رجل، وخمسة دنانير عن كل امرأة، ودينار عن كل طفل، وكان قد جمع ما يقرب من مائة ألف دينار من الأسارى، هذا ما تم بالنسبة للفدية، أما العفو الشامل الذي أضفاه على المعوزين غير القادرين من الأسارى فقد قام بافتداء عشرة آلف أسير، لم يكلفهم مئونة الدفع عنهم لعوزهم، وأطلق أخوه سيف الدين أبو بكر، الملقب بالملك العادل سبعة آلاف شخص، علاوة على ما منحه لبعض قادتهم من مكارم بإطلاق سراح الآلاف من الأسرى دون دفعهم الفدية.

ب- السماح للجند وقادتهم بمغادرة البلاد مع عائلاتهم وأطفالهم خلال أربعين يوما إلى صور أو طرابلس.

ج- قيامه بتوزيع الصدقات على الفقراء والمحتاجين واليتامى والأرامل من الصليبيين.

د – السماح للملكة إيزابلا بالمغادرة واللحاق بأهلها.

هـ- السماح لرجال الصحة بمواصلة أعمالهم في إسعاف الجرحى، ومعالجة المرضى والقيام بدورهم الإنساني، على الرغم من أنهم كانوا قد تخلوا عن هذا الدور، وشرعوا السلاح في وجه المسلمين.

كان هذا التسامح الديني مع أولئك النفر الذين وقفوا ضد المسلمين، أما أولئك الذين سالموا سيما النصارى الأرثوذوكس، الذين فضلوا البقاء في القدس تحت حكم المسلمين،فقد أعطاهم الأمان وعاشوا كبقية أبناء القدس، متمتعين بحريتهم الدينية والمدنية.

استتب الأمن في القدس، فأخذ الجند يسيرون الدوريات، ويؤمّنون حياة الناس ويحافظون على ممتلكاتهم، ويدفعون عنهم الأذى ويعاملون الآخرين خير معاملة وهذا سجية الإسلام، ولما استقر الحال نصب صلاح الدين مخيمه خارج أسوار المدينة، وأخذت الوفود من أنحاء العالم الإسلامي تفيض إليه مهنئة إياه على هذا النصر المؤزر، الذي تم فيه تحرير بيت المقدس من الصليبيين، فجلس في صيوان مخيمه وأخذ يوزع عليهم الهدايا ومنح الشعراء والأدباء ورجال الدين الأعطيات، ووزع على المحتاجين الصدقات وأكرم وألبس كل ذوي الحاجات، وقدم إليه العلماء والزهاد والشعراء، وأحسن إليهم وأنزلهم منازلهم وكافأهم على صنيعهم.

هكذا قام هذا القائد الفذ بهذه الأعمال الإنسانية مع أعداءه،قبل أصدقائه ومع خصومه، قبل أقربائه فضرب بذلك التصرف الحميد المثل الأعلى والقدوة المثلى لكل قادة التاريخ وأصبح مثلا يحتذى ونبراساً يقتدي، فخلد على الزمان ذكره وانتشر مع الأيام عطره، فالعفو عند المقدرة من شيم الكرام ومن أخلاق الإسلام.

المطلب الثاني: صلاح الدين يتوجه شخصيا لإصلاح المسجد الأقصى ومسجد الصخرة المشرفة

تمت لصلاح الدين وجنده المنتصرين، مراسيم تقبل التهاني وتوزيع الأعطيات والهبات وإكرام ذوي الحاجات وتوزيع الهدايا والمنح على مستحقيها من قادة وأدباء وشعراء وفقهاء وعلماء وكل ذوي الاحتياجات ... فما كان عليه إلا أن يتوجه شخصيا لتفقد البلد وأحواله، وما أصابه من سوء أهواله من حكم للصليب، دام فيه ما يربو على الثمانية والثمانين عاما، تغيرت فيه كثير من المعالم، وتبدلت فيه العديد من المراسم، فكان حقاً عليه أن يقوم هو شخصيا بالإطلاع على ما تهدم من بنائه، وما تغير من معالمه فتوجه حالا إلى المسجد الأقصى المبارك وقبة الصخرة المشرفة، الهدف المنشود، والمعلم المقصود ليصلح ما علق بهما من أدران المحتلين،وشوائب الصليبيين وما تبدل منهما من مسالك المسلمين، فأزال ما بهما من آثار نصرانية، فما زال النقوش والصلبان التي رسمها الصليبيون على جدران الصخرة الداخلية، وغطاها بالرخام، وغسل الصخرة بماء الورد، وبخرت وفرشت وأمر بعمارة المسجد الأقصى وتخشيبة ورصه بالفسيفساء والرخام،كان الصليبيون قد حولوا مسجد الصخرة إلى كنيسة، وأقاموا بها مذبحاً، واتخذوا جانبا من المسجد الأقصى كنيسة والجانب الآخر مخازن ومنازل وقد ملأوها بالصور والتماثيل.[1]

يصف لنا (مجير الدين الحنبلي في كتابه "الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل" قائلاً لما استقر بيت المقدس مع المسلمين وطهره الله من المشركين سأل النصارى في الإقامة به ببذل الجزية وأن يدخلوا في الذمة فأجيبوا إلى ذلك.

ولما تسلم السلطان القدس أمر بإظهار المحراب وكان الداوية قد بنوا في وجهه جدارا وتركوه هويا، وقيل: اتخذوه مستراحا وبنوا غربي القبلة داراً وسيعة وكنيسة. فهدم ما قدم المحراب من الأبنية ونصب المنبر، وأظهر المحراب ونقض ما أحدثوه بين السواري، وفرش المسجد البسط وعلقت القناديل، وكان يوماً مشهوداً ظهر فيه عز الإسلام، وعلت كلمة الإيمان، وبطلت نغمات القسس والرهبان، وعلت أصوات أهل التوحيد بالقرآن، وخرس الناقوس وسمع الأذان، وعزل الإنجيل، وتولى القرآن وبطل ما كان المسجد من الكفر والطغيان، وعبد فيه الملك الديان.

---

(1) -عارف العارف، مصدر سابق، ص 175.

وقد تقدم أن من الاتفاقات العجيبة، أن محي الدين زكي قاضي دمشق لما فتح السلطان صلاح الدين حلب في صفر سنة تسع وسبعين وخمسمائة مدحه بقصيدة منها:

وفتحكم حلبا بالسيف في صفر مبشر بفتوح القدس في رجب

ولما فتح السلطان القدس، تطاول للخطابة يوم الجمعة كل واحد من العلماء الذين كانوا في خدمته حاضرين، وجهز كل واحد منهم خطبة بليغة طمعاً في أن يكون هو الذي يعين لذلك، والسلطان لا يعين الخطبة لأحد.

فلما دخل يوم الجمعة رابع شعبان، واجتمع الناس لصلاة الجمعة حتى امتلأ الجامع ونصبت الأعلام على المنبر، وتلكم الناس فيمن يخطب والأمر مبهم حتى حان الزوال وأذن المؤذن الجمعة، فرسم السلطان وهو بقبة الصخرة للقاضي محي الدين بن زكي الدين علي القرشي أن يخطب، وهي أول جمعة صليت بالمسجد الأقصى الشريف بعد الفتح، وأعاره العماد الكاتب أهبة سوداء، كانت عنده من تشريف الخلافة لبسها في الحال، فكانت خطبته فواتح سور وآيات الحمدلة لله (سبحانه وتعالى) على هذه النعم التي أورفها على المسلمين بهذا النصر المبين والفتح العظيم[1]

أدى السلطان المنصور صلاة تلك الجمعة في مسجد قبة الصخرة المشرفة، وأجلس على كرسي الوعظ الشيخ زين الدين أبو الحسن علي بن نجا الأنصاري الحنبلي المعروف بابن نجيه كما قام ورتب خطيبا للمسجد الأقصى المبارك.

كان من أبرز ما أعده رجال الإسلام، لاستعادة الأقصى المبارك، من ربقة الصليبيين ذلك المجاهد الكبير نورالدين زنكي الذي عزم على استعادة القدس لحاضرة الإسلام، حيث أمر في أيامه بإعداد منبر للمسجد الأقصى المبارك ليثبته فيه، وكان ذلك قبل الفتح ألصلاحي بعشرين عاماً تقريباً، حيث أن القدس درة خالدة في أعناق أمراء المسلمين، أمثال هذا القائد الشهيد الذي أعد هذا المنبر، وقد أمر صلاح الدين بإحضاره من حلب، وتثبيته في المكان الذي أعد من أجله وهو يعتبر من أقدم منابر العالم الإسلامي، حيث حافظ على وجوده خلفاء المسلمين وقادتهم طيلة العهود الغابرة إلى أن تسلل إليه اليهودي الحاقد روهان عام 1968 م فأضرم النار فيه وأحرقه، والذي ما زال مكانه فارغاً حتى وقتنا الحاضر، بانتظار إعادة تثبيت منبر على غراره على يدي المسلمين.

لما دخل المسلمون القدس، كان على قبة الصخرة صليب، فأمر بخلعه حيث كانت الصخرة مغطاة بالبلاط، لأن النصارى كانوا قد اقتلعوا منها قطعاً عديدة، وكانوا يبيعونها في القسطنطينية

(1) مجير الدين الحنبلي، مصدر سابق، ص 332.

وصقلية وأوروبا وزنها ذهباً، وخشي إن بقي الحال على ما هو عليه، فإن الصخرة ستنتهي حجارتها مما دعا بعض الفرنجة القيام بتغطيتها، بالبلاط خشية اندثارها على أيديهم.

المطلب الثالث: المؤسسات الخيرية التي أنشأها صلاح الدين في القدس

كان بداخل بناء الصخرة كنيسة أقامها الصليبيون، وتماثيلها منصوبة على جدرانها، فأمر (رحمه الله) بإزالة التماثيل، وإعادة الصخرة على ما كانت عليه مسجداً ورتب لها إماماً وأوقف عليها أراضين ودورا، وحمل إليها المصاحف.

شرع السلطان المنصور صلاح الدين، في إعمار باحات المسجد الأقصى المبارك، وأمر بترخيم محرابه، وكتب عليه ما يلي (بسم الله الرحمن الرحيم: أمر بتجديد هذا المحراب المقدس وعمارة المسجد الأقصى، الذي هو على التقوى مؤسس، عبد الله ووليه يوسف بن أيوب أبو المظفر الملك الناصر صلاح الدنيا والدين، عندما فتحه الله على يديه في شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وهو يسأل الله إيداعه شكر هذه النعمة وإجزال حظه من المغفرة والرحمة).[1]

لم تقتصر أعمال الملك الناصر صلاح الدين على الشؤون العسكرية والإدارية والعمرانية في البلاد بعامة، وبيت المقدس بخاصة، بل تعدى ذلك الأمر إلى ما هو أبعد من ذلك، حتى يبقى الزخم الإسلامي والمد العربي متغلغلا في هذه الديار، ومتجذراً في هذا التراب الطهور، الذي جبل بدم الشهداء، كان رحمه الله، قد بادر إلى اتخاذ خطوة على غرار ما اتخذه السلف الصالح السابق إبان الفتوحات الإسلامية، حيث أتى بعدد من القبائل العربية وأقطعها لهم، فتوطن القدس قبائل من بني حارث، وكانت منازلهم عند القلعة خارج المدينة وحارة بني مرة من الغرب الشمالي إلى سوق الفخر (خان الزيت)، وحارة السعدية لبني سعد، وكانت لهم حراسة باب الخليل ومفتاحه بيدهم، ويلي عقبة الشيوخ من جهة الشمال حارة بني زيد وحارة الجرامنه سوق القطانين، ثم وزعهم على البلدان.

لم يكتف السلطان المنصور بهذه الإجراءات، بل إبقاء على زخم الحياة في هذه الديار،حفاظا على قداستها، وتكريساً لوجودها الديني، قام بترتيب الأعياد والمراسيم المعروفة في بلادنا منها، موسم النبي موسى لأهل القدس وأعمالها، وموسم النبي صالح لأهل الرملة وأعمالها، وموسم الداروم لغزة وأعمالها، وموسم المنطار والحسين لعسقلان وأعمالها، وموسم أبي عبيدة عامر بن الجراح لعرب المسا عيد والشمالخة والصقر، وموسم النبي روبين ليافا وأعمالها، وموسم أبي العيون لبني صعب والشعراوية، وكذلك موسم علي بن عليم وغير ذلك كثير، وكل هذه المواسم جعلها كلها تابعة لموسم النبي موسى، الذي جمع له قرى بني مالك وبني حسن وجبل القدس والوادية وعززهم بجبل الخليل

(1) العارف، المفصل في تاريخ القدس، سبق ذكره ص 176.

ونابلس الذين يردون متعاقبين إلى القدس مع أسلحتهم ومؤنهم وذخائرهم استعداداً للطواريء، فتصادف هذه الموسم عيد الفصح، الذي يحتفل به الأوروبيون لزيارة القدس، وسبب ذلك أن الصليبيين كانوا قد نكثوا العهد مراراً، فخشي صلاح الدين إن هم دخلوا القدس وأراد أن ينقلبوا جنوداً فيحتلون المدينة[1]

إن لهذه المواسم أهمية كبرى في حياة أهل هذه البلاد، تربطهم بها دينياً وتاريخياً وتجمع أهل المناطق ولو مرة واحدة في السنة، فيتدارسون شؤونهم، ويقررون مصيرهم، ويرسمون خططهم، ويشحذون هممهم.

بقي هذا التقليد في فلسطين حتى العصر الحديث، عندما جدده الحاج أمين الحسيني، وحافظ على موسم النبي موسى في غور الأردن، فكان أبناء فلسطين من محافظات الوطن يجتمعون في هذا الموسم، يرفعون الأعلام، ويرددون الأهازيج، والأناشيد الوطنية، والأغاني الشعبية، ويستعرضون قوتهم، ليهابهم عدوهم.

علاوة على هذه الإنجازات في بيت المقدس وأكنافه، فقد قام (رحمه الله) بتأسيس المعالم الرئيسية، وذلك دلالة على الاهتمام الكبير بهذه المعالم الخالدة، كالمستشفيات (البيمارستان) التي هي من ضروريات الحياة لأبناء الأمة، وهذا دليل على أن الرعاية الصحية، كانت من تعاليم الإسلام، ولأبناء هذه الأمة، التي أولتها العناية الفائقة، كما قام بالاهتمام ببناء الربط، وجعلها دوراً للعلم وللمتصوفة، ومركزاً للمجاهدين، لم يغب عن باله الاهتمام بدور العلم والمدارس، فقد أسس المدرسة الصلاحية، واهتم بالإعمار والبناء، سيما تحصين المدينة المقدسة بالسور الذي يعتبر بحق من معالم هذه المدينة،ومن أساسياتها للدفاع عنها، ويمكنني أن أوضح هذه المعالم التي قام بها السلطان المنصور صلاح الدين، ولا يعني أنه اهتم بالحرب وفنونه وإتقانه وتدريب الجند على خوضه، بل زاد على ذلك بأن أهتم بالإصلاحات الإدارية والعمرانية والفكرية وغيرها.

يقول مصطفى (مراد الدباغ) في كتابه "بلادنا فلسطين" الجزء التاسع "أقام صلاح الدين بظاهر بيت المقدس، بعد فتحه، إلى الخامس والعشرين من شعبان يرتب أمور البلد وأحواله، وينشي المدارس والمعاهد والأربطة والمستشفيات والملا جيء، ويرمم أسوار البلدة وحصونها وغيرها من أعمال العمران والتقوية، وقيل في ذلك:

وُلِيَ رحمه الله الأمير سباروخ التركي أمر بيت المقدس، الذي عرف بحسن سيرته وديانته وعهد في مشيخة الحرم الشريف، والنظر عليه والتصرف في أوقافه إلى موسى بن غانم الأنصاري،وفوض أبا عبد

(1) عارف العارف، مصدر سابق، ص 177 .

الله محمد بن أبي بكر بن خضر القرشي وكالة بيت المال، وفوضه ببيع الأملاك المختصة ببيت المال بالقدس، فاشترى (كنيسة صندحنه)وهي المدرسة الصلاحية فيما بعد، والجهات التي أوقفها عليها، كما ولى بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة الأسدي الموصلي المولد والمنشأ الحلبي الشافعي، المعروف بابن شداد، قضاء بيت المقدس والعساكر وتدريس المدرسة الصلاحية. [1]

ويمكنني أن أفصل الإنجازات العمرانية والعلمية والمعالم الحضارية التي أورثها صلاح الدين في بيت المقدس، على النحو التالي:

1. **البيمارستان**[2]: في عام583 هـ وفق 1187 م قام (رحمه الله) بأداء فريضة الحج، وقد عاد إلى بيت المقدس، فاختار موقعا في الحي المعروف بحي الدباغة بالقرب من كنيسة القيامة، حيث أرسى في هذا المكان البيمارستان (المستشفى الصلاحي)، حيث تم البناء وزوده بالعقاقير والأدوية،فكانت تقدم للمحتاجين مجانا وبدون مقابل، وعهد العمل فيه إلى أمهر الأطباء في عصره ومنهم الطبيب المشهور رشيد الدين بن علي الصوري، الملقب بابن الفيل، فاحتضنه بعد صلاح الدين أبناؤه الملك العادل وابنه الملك المعظم عيسى لمهارته وحسن أداءه، والطبيب يعقوب بن صقلان وكان مسيحياً مقدسياً، وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على المساواة التي كان يتمتع بها أبناء الديانات الأخرى غير المسلمين من ذوي الكفاءات، بيد أن هذا البناء انتابه العطب إثر الزلزال الذي ضرب البلاد عام 1458م، مما أدى إلى انهياره، علماً بأن أرضه وقفية.
2. **الخانقاه الصلاحية**: حيث أخذ صلاح الدين جزءاً من منزل بطرك الروم بموافقته الملاصق لكنيسة القيامة من الجهة الشمالية، فحوّل هذا الجزء الملاصق والراكب على الكنيسة من الجهة الشمالية إلى مسجد ورباط أوقفه على طائفة الصوفية في الخامس من شهر رمضان المبارك عام 585هـ وفق 1189م، وقد تحوّل هذا البناء إلى دار للمجاهدين، أنشأ عليها الشيخ برهان الدين غانم شيخ الخانقاة في عهد المماليك منارة سنة 820 هـ وفق 1417هـ. "لدى زيارة الدكتور حمد احمد عبد الله إلى هذا المكان، وجد بداخله مسجداً مكتوب في صدره العبارة التالية "بسم الله الرحمن الرحيم، إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر

(1) مصطفى مراد الدباغ، مصدر سابق، ج 9 ص 204 .

(2) كلمة بيمارستان مأخوذة من بيمار الفارسية وتعني مريض وستان بمعنى مكان وتدل علىالمستشفى ..

وأقام الصلاة" أشار بإنشاء هذا المحراب وعمارته الفقير عيسى بن أحمد عفا الله عنه ورحم سلفه في أيام مولانا السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة 741 هـ – 1340 م."[1]

3. المدرسة الصلاحية –" تنسب على مؤسسها صلاح الدين الأيوبي، فقيل: المدرسة الصلاحية،وقيل المدرسة الناصرية الصلاحية، نسبة إلى الناصر صلاح الدين الأيوبي وسارت التسمية الأولى واشتهرت.

عين صلاح الدين مكاناً للمدرسة، وفوّض وكيل بيت المال بشراء كنيسة قديمة كانت تعرف باسم كنيسة القديسه حنة" صند حنه"،ويقال إن فيها قبر أم مريم (عليها السلام) وفوض تدريسها ووقفها إلى القاضي بهاء الدين بن شداد" وهذا يعني أن المدرسة باشرت دورها الفكري بعد تحرير بيت المقدس"[2] وكانت مدرسة للفقهاء الشافعيين ورباطا للصلحاء الصوفيين ووظيفة مشيختها من الوظائف السنية في الإسلام، كتبت الوقفية التالية على حجر كبير وضع على باب المدرسة هذا نصه"بسم الله الرحمن الرحيم. وما بكم من نعمة فمن الله، هذه المدرسة المباركة وقفها مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين سلطان الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بن أيوب بن شادي محي دولة أمير المؤمنين أعز الله أنصاره، وجمع له بين خير الدنيا والآخرة، على الفقراء من أصحاب ألإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه سنة ثان وثمنين وخمس مائه"[3]

4. المدرسة الميمونية – تقع عند باب الساهرة، وهي كنيسة من بناء الروم أوقفها الأمير فارس الدين ابو سعيد ميمون بن عبد الله ألقصري خازندار الملك صلاح الدين، وتاريخ وقفها في جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة. ولم يبق لها نظام في عصرنا بل صارت من المهملات.[4]

5. مقبرة باب الساهرة – علاوة على ما تقدم من إنجازات على مستوى، الصحة والتعليم وبناء المساجد والاهتمام بالشؤون الإدارية والعسكرية، لم يغفل صلاح الدين جانباً هاماً من جوانب حاجة المجتمع الإسلامي، قام (رحمه الله) بترتيب مقبرة لموتى المسلمين في القدس الشريف بجوار المسجد الأقصى المبارك، من جهة باب الساهرة، واتخذ منها مدافن للعلماء والصالحين

---

(1) د / حمد أحمد عبد الله يوسف، مصدر سابق، ص 300.

(2) د عبد الجليل حسن عبد المهدي، مصدر سابق،ج1، ص 183.

(3) المصدر نفسه ص 300.

(4) مجير الدين الحنبلي، مصدر سابق، ج2 ص 48.

وموتى المسلمين لتبقى أجداث المسلمين في أكناف القدس، علماً بأن هذه المقبرة كانت تعرف سابقا بمقبرة المجاهدين،وما زالت هذه المقبرة تستعمل حتى وقتنا الحاضر،وأن الجزء الشرقي من هذه المقبرة قد أزيل وتم البناء عليه حيث أنشئت داراً للإخوان المسلمين، وبعض بيوت آل العلمي كما هو معلوم لدى الجميع في هذه الأيام.

6. مقبرة ماملا – أي مقبرة مأمن الله وتقع بظاهر البلد من الجهة الجنوبية الغربية في المنطقة التي تقع في القدس الغربية، حيث تم احتلال هذا الجزء عام 1948م وبها قبور الصالحين والشهداء والفقهاء وأئمة المسلمين وقضاتهم، وبعد الإحتلال الإسرائيلي لهذا الجزء من مدينة القدس عام 1948م حوّله اليهود إلى حديقة عامة، وبنوا عليه عددا من الفنادق والمحلات، ولا زالت داراً للأوقاف الإسلامية ماثلة للعيان في هذا المكان، فقد استولى عليها اليهود واتخذوا منها مكانا لاستعمالاتهم الرذيلة.

7. جامع الجبل – والمقصود بكلمة الجبل، هو جبل الطور، الواقع إلى الشرق من بيت المقدس والمطلّ على هذه المدينة المقدسة، كان هذا الجامع مبنياً سابقاً، لكن القاضي الفاضل كتب إلى صلاح الدين رسالة يطلب منه توسيع هذا الجامع فوافق على ذلك، وتم توسيعه والصلاة فيه، كتب عارف العارف (رحمه الله) صاحب كتاب (المفصل في تاريخ القدس) عن هذا الجامع بأنه أقتبس هذه المعلومات من مكتبة الأستاذ (عيسى إسكندر المعلوف) بعنوان مجموعة مراسلات للقاضي الفاضل والعماد الكاتب وابن بصافه، ويرجع تاريخ هذا المخطوط إلى سنة 644 هـ وفق 1246م.[1]

8. قبة يوسف – تقع هذه القبة في الجهة الجنوبية من الصخرة المشرفة بين القبة النحوية ومنبر برهان الدين مكتوب عليها " بسم الله الرحمن الرحيم. وصلواته على محمد النبي وآله، أمر بعمارته وحفر الخندق مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين خادم الحرمين الشريفين، وهذا البيت المقدس أبو المظفر يوسف بن أيوب محي دولة أمير المؤمنين، أدام الله كيانه ونصر أعلامه في أيام الأمير الكبير سيف الدين علي بن أحمد أعزه الله سنة سبع وثمانين وخمسمائة للهجرة النبوية".

9. سور المدينة _ من المعلوم أن بيت المقدس يحفها سور ضخم من جميع الجوانب، ولما حررها صلاح الدين كان السور قد أصيب بالعطب نتيجة الحروب وضربات المنجنيقات الضخمة، مما دعا صلاح الدين أن يقوم بتعزيز هذا السور وإعادة بناءه وتشديد حراسته حيث زاد في

(1) عارف العارف، مصدر سابق، ص 181.

متانته سيما الجانب الواقع بين باب العمود وباب الخليل، وقد شحنه بالأبراج المتينة، وحفر خارجه خندقا ضخما خشية وصول الأعداء إلى قلب المدينة، وكان رحمه الله يعمل في هذا السور بيديه الكريمتين ويضع الحجارة على قربوس فرسه، وقد عهد في هذا العمل إلى أبنائه وإخوانه، وقد عمل في هذا السور أساري الصليبيين، كما حضر إليه للمساعدة عدد من العمال المهرة من الموصل.

10. سقاية المسجد الأقصى المبارك ومكان الطهارة- اهتم هذا السلطان المظفر بحياة المسلمين والناس اليومية فقام 0رحمه الله) بالإيعاز لعمل سقاية المسجد الأقصى المبارك ومكان الطهارة للمصلين المسلمين.

هذه الأعمال الجليلة التي أسسها صلاح الدين الأيوبي في مدينة القدس، تعتبر معالم بارزة في حياة هذه الأمة الخالدة، وإن دل على شيء فإنما يدل على حرصه على جميع نواحي الحياة العسكرية والمدنية والدينية، وقد أرسى قواعد في بيت المقدس بقيت خالدة لهذه الأمة.

المطلب الرابع: تغيير سكان القدس بعد تحريرها على يدي صلاح الدين

تحدثت فيما سبق عن الوضع الاجتماعي الذي كانت عليه مدينة القدس عندما كان فيها العلماء والولاة والقضاة، وعن الوضع الذي آلت إليه بعدما داهمها الفرنجة، وكيف أصبحت فيما بعد. وها أنا أستعرض حالها بعد أن تم تحريرها، وقد أورد هذا الباحث (مصطفى الحياري) في بحثه عن القدس تحت الحكم الصليبي قائلا " تغير سكان القدس بعد سنة 1187م مرة أخرى. لكن التغير في هذه المرة لم يكن جذريا وتاما كما جرى سنة 1099م. ففي الفترة بين 4تموز 1187م وحتى أواخر أيلول سنة 1187م، عندما حاصر صلاح الدين القدس، أصبحت المدينة مركز التجمع للإفرنج جميعا من أنحاء فلسطين كافة، وقد لجأ هؤلاء إلى المدينة طلبا لحماية أسوارها، ويؤكد القاضي الفاضل أنه لم يبق على السلطان إلا القدس التي تجمع فيها الفرنجة الهاربون من الداني والقاصي، وعندما سلمت عسقلان لصلاح الدين زود اللاتين الذين كانوا في المدينة بالخفراء الذين رافقوهم إلى القدس، ووصل إلى المدينة أعداد كبيرة من القادمين من الداروم وغزة والرملة والقرى الكثيرة المحيطة بالقدس،وبلغ ازدحام المدينة إلى الغاية فحتى الكنائس والطرقات امتلأت بالناس، ولم يكن المرء يستطيع المشي في شوارعها إلا بصعوبة.

وعلى أية حال ففي أقل من اسبوعين من الأربعين يوما التي نصت عليها اتفاقية التسليم غادر جميع السكان اللاتين في القدس المدينة، فيما عدا أولئك الذين عجزوا عن دفع الفدية والذين استرقوا تبعا لذلك،وأصبحت أحياؤهم وأسواقهم ودكاكينهم ومساكنهم الأخرى خالية ، ولم يبق في المدينة

سوى المواطنين الأصليين في حارة النصارى، وبعض رجال الدين الروم وجماعات نصرانية شرقية أخرى.

دفع هؤلاء النصارى المحليون الذين شملتهم اتفاقية التسليم الفدية، وطلبوا من صلاح الدين السماح لهم بالبقاء في بيوتهم، وأبدى هؤلاء استعدادهم لدفع الجزية، ومتابعة حياتهم العادية في المدينة."[1]

لكل ما ذكر، وكما أسلفت أيضا في موضع سابق "يوم بيوم" فشتان بين الحالتين اللتين عاشتهما المدينة المقدسة وبين الموقفين، الموقف الأول، ألا وهو الاجتياح الإفرنجي لهذه المدينة وما خلف من ويلات ودمار ودماء غاصت فيها الخيل إلى الركب في ساحات المسجد الأقصى المبارك، وما بين هذا اليوم الذي خرج منها المحتلون بسلام وأمان يحملون معهم ما يرغبون ويقدرون على حمله قافلين إلى بلادهم.

حقا إن الفرق واسع والبون شاسع وهذه تربية الإسلام وثقافة تلاميذ محمد (عليه الصلاة والسلام) الذين تربوا على منهج النبوة والرسالة الخالدة التي تحفظ للإنسان حقه في الحياة، لنا في هذا الموقف مندوحة في أن نذكر بأن المحتل مهما على وتغطرس وحكم واستبد لا بد له من نهاية، وهذا ما نتأمله في نهاية المحتل الصهيوني لديار المسلمين بعامة، ولبيت المقدس بخاصة، وسيأتي اليوم الذي يفرح فيه المؤمنون بنصر الله.

المطلب الخامس: صلاح الدين محرر القدس محرر الأمة

لست بصدد تتبع شخصية هذا القائد الفذ، الذي خلده التاريخ، والذي يشهد على سلوكه وأخلاقه الأعداء قبل الأصدقاء، إنها تربية الإسلام وخلق الإيمان الذي أنغرس في نفسه.

بدأ حياته بجهاد واجتهاد، ونمت شخصيته عن قائد فذ منذ نعومة أظفاره، وهو الذي ظهرت عليه خيلاء الفتوة والشجاعة منذ الصغر، فتم اختياره لمرافقه عمه أسد الدين شيركوه للوقوف أمام الصليبين في مصر، ويكفيه فخراً، أنه استطاع أن يغير النظام السياسي العلوي في مصر ويحيله إلى نظام سني يتبع للخلافة الإسلامية في بغداد، ليشكل بذلك وحدة إسلامية، كما أنه بالإضافة إلى أعماله الجليلة وورعه، استطاع أن يقف أمام أقوى قوة عاتية غازية لبلاد المسلمين، ويحقق أروع الانتصارات عليهم، وكان على رأس هذه الانتصارات معركة حطين، التي فتحت له الطريق لتحرير بيت المقدس، لأن من يسيطر على القدس تدين له فلسطين ومن تدين له فلسطين يتمركز في قلب العالم العربي والإسلامي، وكان من أبرز إنجازاته أنه استطاع أن يوحد بلاد مصر والشام ليكون بذلك وحدة إقليمية عربية

(1) مصطفى الحياري، مصدر سابق، ص، 192 .

إسلامية، استطاعت أن تؤسس نواة لوحدة إسلامية كبرى، أصبحت تعرف باسم الدولة الأيوبية على يدي هذا القائد الكبير.

إذا تعمقنا في حياته الخاصة، وأعماله الجليلة، فإن المقام بنا يطول، ويكفيه فخراً أنه كان يعلم ويؤدب ويربي، وهو صاحب المقولة المشهورة، حينما مرّ على خيمة ذات ليلية ولم يسمع منها قراءة القرآن، قال (من هنا تأتي الهزيمة) فهو حريص على التدريب والتعليم والتربية الإسلامية.

لم تكن الإنجازات التي رسخّها في القدس هي الوحيدة في هذه الديار المباركة، بل أنه اعتنى بالمدن الفلسطينية الأخرى، ولا زالت آثار صلاح الدين ماثلة للعيان في مدينة الخليل، فقام بالإصلاحات اللازمة في المسجد الإبراهيمي الشريف، بعد تحرير المدينة من الصليبيين، إضافة إلى تثبيت العديد من العائلات، التي ما زالت تعيش حتى وقتنا الحاضر في مدن فلسطين، سواء كان ذلك في القدس أو في الخليل، وأن لهذه العائلات شرف السدانه والخدمة في مسجدي الأقصى ومسجد أبينا إبراهيم الخليل (عليه السلام)، وهذا مؤشر واضح على توجه عظيم لتوطين هذه البلاد بأهلها المسلمين حتى لا يكون هناك فراغ لأي دخيل..

وإذا كانت نظرة هذا الإنسان إلى الوضع الذي كانت تعيشه هذه الديار من فرقة وتشتت وهوان، فاستطاع أن يخوض العديد من المعارك ويكتب له النصر فيها على جميع الجبهات، فلا أدل من شهادات المؤرخين حتى الأعداء لهذا الرجل الشجاع والإنسان بل ومن أبرز صفاته أنه كان - رحمه الله – رقيق القلب عطوفا وظهر هذا التصرف عندما شاهد نساء الفرنجة وهن يحملن أطفالهن ويمشين بعد تحرير القدس، فسألهن إلى أين أنتن ذاهبات، فأجبنه على سؤاله: ففاضت عينه بالدمع عليهن وقدم لهن المساعدة وألحق ذويهن بهن، أضف إلى ذلك أنه سمح للنصارى الأرثوذكس واليعاقبة بالبقاء في القدس، ولا أدل على ذلك من شهادة (رنسيمان) صاحب كتاب "تاريخ الحروب الصليبية" حيث قال "أما المسيحيون الأرثوذوكس واليعاقبة، فظلوا مقيمين في بيت المقدس، والتزم كل منهم رسميا بأن يؤدي الجزية فضلا عن الفدية المقررة عليه، على الرغم من أن عدداً كبيراً من الطبقات الفقيرة، تقرر إعفاؤهم من الدفع، وابتاع أغنياؤهم عدداً كبيراً من الأمتعة والأملاك التي أضحت خالية بعد رحيل الفرنجة، واشترى ما تبقى منها المسلمون واليهود الذين شجعهم صلاح الدين على الاستقرار في المدينة، ولما بلغت القسطنطينية أنباء انتصار صلاح الدين، أرسل الإمبراطور إسحق أنجيلوس سفارة إلى صلاح الدين لتهنئته، وطلب منه ضرورة إعادة الأماكن المقدسة المسيحية إلى الكنيسة الأرثوذكسية، واستجاب صلاح الدين لطلبه، بعد أن تمهل قليلا. وألح على صلاح الدين كثير من أصدقائه بتدمير كنيسة القيامة، غير أنه أشار إلى أن المسيحيين يجلّون الموضع، لا البناء، فما زالوا يودون الحج إلى هذه المواضع، كما أنه

لم يشأ أن يمنعهم من ذلك، والواقع أن كنيسة القيامة لم تغلق أبوابها إلا لمدة ثلاثة أيام، ثم تقرر السماح للحجاج الفرنجة بدخولها مقابل رسم يؤدونه.

على أن المسيحيين اللاجئين لم يغادروا مدينة بيت المقدس، إلا بعد أن تم انتزاع الصليب المنصوب بأعلى قبة الصخرة، وزالت كل رموز العبادة المسيحية، وجرى تطهير المسجد الأقصى من كل آثار احتلال الداوية، وتم رش كل من قبة الصخرة والمسجد الأقصى، بماء الورد، وهيئتا من جديد لتؤدى بهما الشعائر الإسلامية، وفي يوم الجمعة 9 أكتوبر سنة 1187 م أدى صلاح الدين مع جمهور المصلين، صلاة الجمعة بالمسجد الأقصى، وأعربوا عن شكرهم وامتنانهم لله (سبحانه وتعالى) [1]

المطلب السادس: سيرة صلاح الدين تستنهض همة المسلمين

استعرضتا حال المسلمين قبل الغزو الصليبي لديارهم، وعرفنا ما هي الأسباب التي أدت إلى انهيار هذه الأمة، وعشنا الفصول السابقة ظاهرة تحرّق وألم على وضع العالم الإسلامي والقدس، وكيف عمل قادة المسلمين وتطلعاتهم وإنجازاتهم بشأن القدس، وكيف أنهم أعدوا العدة وهيئوا الجيوش ودربوا الجند وعبأوا هذه الأمة بطاقاتها الهائلة، ووجهوها الوجهة السليمة على مدى عشرات السنين، وتم اختيار القادة المخلصين الذين تتناسب رسالتهم مع قدراتهم، كل هذه العوامل متحدة كانت البدايات لوحدة هذه الأمة وإعادة مركزها القيادي بين شعوب الأرض، متى تم لها هذا الإنجاز؟ لقد تم لهذه الأمة هذا الإنجاز عندما شعرت بما أصابها وما وصلت إليه من ذل وهوان إلى أن فتح الله عليها برجال مخلصين وقادة مؤمنين بقضية أمتهم ففتح الله عليهم النصر المؤزر.

إن أمتنا بحاجة إلى رجل كصلاح الدين ونور الدين زنكي وغيرهم، ممن عملوا ليل نهار على توحيد هذه الأمة والسير بها إلى طريق النصر، ويكفيه فخراً ما قاله فيه(سالازار) أحد قادة الصليبيين، قائلا: إن الخطر الحقيقي على حضارتنا هو الذي يمكن أن يحدثه المسلمون حين يغيروا نظام العالم، فلما سأله أحد الصحفيين، لكن المسلمين مشغولون بخلافاتهم ونزاعاتهم، أجابه: أخشى أن يخرج منهم من يوجه خلافاتهم إلينا. [2]

فعلاً خرج صلاح الدين في العصور الوسطى وكانت النتيجة المعروفة، فأمةٌ يخرج منها هذا البطل ومن معه من رجالات دحرت أشرس حملات صليبية عن بلاد المسلمين،أليست قادرة بل جديرة بأن يخرج منها أحدٌ كصلاح الدين، ونحن نشاهد في هذه الأيام البطولات والتضحيات على أرض فلسطين والعراق وأفغانستان والجزيرة العربية... من أبناء هذه الأمة العظيمة.؟!

---

(1) ستيفن رنسيمان، مصدر سابق، ج2– ص 756.

(2) جلال العالم، مصدر سابق، ص 53 .

إن صلاح الدين لم يكن الوحيد الذي غيّر وجه التاريخ، بل كان معه جيل كامل من أفذاذ الرجال المسلمين المخلصين أيضا، ممن تدربوا على يدي هذا القائد المغوار، وتحققت على أيديهم الانتصارات الباهرة.

إن من يتتبع سيرة هذا البطل، وما جرى لهذه الأمة، وكيف أنها خرجت من الظلام، وأعيد لها مجدها وعزها وكرامتها ودحرت عن بلادها فلول الصليبيين الغزاة، وتحررت بلادنا منهم وعادت القدس لأصحابها الشرعيين، ليزداد أملاً وثقة بنصر الله (سبحانه وتعالى) ويدرك أن النصر آت لا محالة،سيما نحن أبناء هذا الجيل الذين نعيش في عصرنا هذا عهد الهزائم المتتالية والمؤامرات المتلاحقة، فإنه يجب علينا ألا يدب في نفوسنا اليأس والخور، ولا يتسرب إلى قلوبنا، ولا نعتبر ما وصلنا إليه هو نهاية المطاف وآخر الدنيا، بل إنها سحابة صيف سوف تنجلي وإن النصر آت لا محالة إن شاء الله، لأن هذه الأمة سيخرج منها رجال وأبطال، أمثال صلاح الدين ونور الدين زنكي وعماد الدين زنكي، وأن هذه الأمة سوف ستتوحد وسترجع إليها عزتها، لأن عناصر وحدتها موجودة، ولا بد يوما أن يبزغ الفجر ويظهر النور على ربوع هذه البلاد، وستعود فلسطين والقدس لأصحابها الشرعيين ويعود الأقصى لحاضرة المسلمين، لأن أمة عريقة قوية في دينها ورجالها وكنوزها لا تفنى ولن تذوب مهما كانت الصعاب التي تواجهها، فالأمل معقود بإذن الله على هؤلاء الرجال الذين بدأنا نشاهد بطولاتهم ضد المحتلين، سواء كان الاحتلال القديم على فلسطين من قبل الصهاينة الغاصبين أو المحتلين الأمريكان لبلاد العراق وأفغانستان، وأن هذه الأمة لا تفقد الأمل بالله في إحيائها من جديد لتأخذ موقعها تحت الشمس، وتزيل الغزاة ولو بعد حين.

لعل بعض السائلين يقول: لماذا لم يستقر صلاح الدين في القدس طالما أن هدفه كان تحريرها؟!

إن الجواب على هذا السؤال بيّن وواضح، حيث أن صلاح الدين الأيوبي (رحمه الله) جعل هدفه الأسمى تحرير بيت المقدس من ربقة الصليبيين الغزاة الذين كانوا قد اتخذوا من القدس مقرا لمملكتهم اللاتينية، فعندما حررها (رحمه الله) وتم له ذلك، فهو رجل نشأ في أحضان الرجولة والبطولة والفتوحات الميسرة، واصل العمل بالجهاد لتحرير بقية البلاد، وقبل توجهه صوب دمشق الشام قام بتنظيمات إدارية، شمل تفويض ولايتها إلى عزالدين جرديك الذي نصحه صلاح الدين قائلا "يغنيك على أن نهديك وإنما اعتمدنا عليك لاجتماع خلال الكفاية والشهامة والديانة فيك "[1] وقد عيّن ثلث دخل نابلس وأعمالها لتصرف على مصالح بيت المقدس، وتشييد سورها وتعمير خنادقها.[2]

(1) عماد الدين الأصفهاني، مصدر سابق، ص 611.

(2) المصدر نفسه ص 587.

عمل صلاح الدين على مواصلة جهاده إلى ما هو أبعد من ذلك، باتجاه الشمال والشرق حتى بلاد أذربيجان ...

بيد أن قضاء الله عاجله، والمنية وافته قبل أن يحقق نهاية طموحه ومسيرة جهاده، فيقول في نهاية حياة هذا البطل ابن كثير في كتابه البداية والنهاية " ثم دخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة، فيها كانت وفاة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله تعالى، استهلت هذه السنة وهو في غاية الصحة والسلامة، وخرج هو وأخوه العادل إلى الصيد شرقي دمشق، وقد اتفق الحال بينه وبين أخيه، أنه بعدما يفرغ من أمر الفرنجة يسير إلى بلاد الروم، ويبعث أخاه إلى بغداد، فإذا فرغا من شأنهما سارا جميعا إلى بلاد أذربيجان بلاد العجم، فإنه ليس دونها أحد يمانع عنها، فلما قدم الحجيج يوم الاثنين حادي عشر صفر خرج السلطان لتلقيهم، وكان معه ابن أخيه سيف الإسلام صاحب اليمن، فأكرمه والتزمه، فعاد إلى القلعة ودخلها من باب الجديد، فكان ذلك آخر ما ركب في هذه الدنيا، ثم اعتراه حمى صفراوية ليلة السبت سادس عشر صفر، فقصده الأطباء، ثم اشتد به الحال ليلة السابع والعشرين من صفر، واستدعى الشيخ أبا جعفر إمام الكلاسة، ليبيت عنده يقرأ القرآن ويلقنه الشهادة، إذا جد به الأمر، فذكر أنه كان يقرأ عنده وهو في الغمرات، فقرأ (هو الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة). فقال: وهو كذلك صحيح،فلما أذن الصبح جاء القاضي الفاضل، فدخل عليه وهو في آخر رمق، فلما قرأ القارئ (لا إله إلا هو عليه توكلت، تبسم وتهلل وجهه وأسلم روحه إلى ربه تعالى، ومات رحمه الله وأكرم مثواه وجعل جنات الفردوس مأواه، وكان له من العمر سبع وخمسين سنة لأنه ولد بتكريت في شهور سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة.

قال العماد وغيره، لم يترك في خزانته من الذهب سوى جرم واحد، أي دينار واحد، صوريا، وستة وثلاثين درهماً، وقال غيره وسبعة وأربعين درهما، ولم يترك داراً ولا عقاراً ولا مزرعةً ولا بستاناً ولا شيئاً من أنواع الأملاك، هذا وله من الأولاد سبعة عشر ولداً وابنةً واحدةً ... "[1]

ارتقى رحمه الله بروحه إلى الرفيق الأعلى، وبقي ذكره حياً على ألسنة أبناء الشرق والغرب، وإنك لواجد في هذا الرجل الخصال الحميدة والفعال الكريمة والسجايا الحسنة التي بقيت خالدة على مر الزمان، فكان النصر يسير في ظله أينما سار ويفتح البلدان، ويحرر الأوطان إلى أن أصبح النور يغطي ربوع هذه البلاد الإسلامية من مشارقها إلى مغاربها، فبمثل هذا يخلّد التاريخ رجاله ويذكرون على مدى الزمان.

(1) أبو الفداء، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، مصدر سابق، ج13 ص 2 .

المبحث الثالث

المطلب الأول: القدس لب الصراع الصليبي الصهيوني

استطاع صلاح الدين (رحمه الله) أن يحرر بيت المقدس من الاحتلال الصليبي، الذي جثم عليها مدة ثمانية وثمانين عاما، فكان القتال حول القدس مريراً، وكل فريق يحارب عن عقيدة، بيد أن النصر كان للمؤمنين حقا.

خرج الصليبيون من القدس يجرون أذيال الهزيمة، منكسي الأعلام فتشتتوا في الآفاق،

هؤلاء الصليبيون الذين يتجرعون طعم الهزيمة، لم يكونوا بذلك العدد والعدد البسيطة، بل إنهم جزء كبير من العالم المعروف آنذاك، إنهم أوروبا بقضها وقضيضها، فهم من أصحاب الديانة النصرانية وأتباعها، وكانت رسالتهم عندما احتلوا بيت المقدس تحرير قبر السيد المسيح – على حد تعبيرهم – من الأمة الإسلامية، وهذا شيء عقدي جاءوا لتحقيقه، بيد أن المسلمين كانوا يدافعون عن مقدساتهم ووجودهم وبلادهم، أما الغرباء فإنه لن يكن لهم مكان على أرض الإسلام والمسلمين وديار فلسطين مهما تعاظمت القوة وسيطر الباطل.

لم يكن خروج الصليبيين من القدس بالأمر اليسير على نفوس الصليبيين الحاقدين، الذين دفعوا ثمناً باهظاً في سبيل السيطرة عليها، وعلى أرجاء الشرق الإسلامي، وكيف كان خروجهم منها مذلاً ومهاناً، فبقيت غصة في قلوب الصليبيين يحيكون المؤامرات والدسائس علّهم تتاح لهم الفرصة ولو إلى حين، ليعيدوا الكرّة على بيت المقدس فيظفرون باحتلاله ثانية، مهما كلفهم الثمن، وهذا ما خططوا له وعلموا على تحقيقه قديما بل وحديثا، عندا تآمروا مع أعدائهم في العقيدة الصهيونية العالمية وعملوا جاهدين على نزع هذه البلاد من أيدي أصحابها الشرعيين، ولا أدل على فرحتهم بضياع القدس من أيدي المسلمين عندما تم احتلالها من قبل الصهاينة عام 1967 م.

قال رادولف تشرشل " لقد كان إخراج القدس من سيطرة الإسلام حلم المسيحيين واليهود على السواء، إن سرور المسيحيين لا يقل عن سرور اليهود، إن القدس قد خرجت من أيدي المسلمين، وقد أصدر الكنيست الإسرائيلي ثلاثة قرارات بضمها إلى القدس اليهودية ولن تعود إلى المسلمين في أية مفاوضات مقبلة بين المسلمين واليهود.[1]

(1) رادولف تشرشل، مصدر سابق، ص 129. .

المطلب الثاني: الإرث الكبير

أوضحنا فيما سبق، كيف أن نهاية هذا البطل الكبير، كانت مشرفة وخالدة على مر الزمان وذلك بتحقيق الأهداف والطموحات التي كانت تصبو لها هذه الأمة، بعدما ذاقت من الويلات الكثير، إن قضاء الله واقع، وإن لحياة الدنيا نهاية، ولكن الذكرى والأعمال الخالدة تبقى على مر الزمان،فحياة هذا البطل مليئة بالبطولات، فعندما شعر صلاح الدين بدنو أجله وقرب منيته استدعى حاشيته وأحضروا ورثته أمامه وقام بتقسيم ملكه الشاسع عليهم، فكان نصيب كل منهم على النحو التالي:

أولا : تكون ولاية الشام بما فيها فلسطين تحت إمرة ابنه الأفضل وتحت وصاية أخيه العادل.

ثانيا: مصر، لابنه عثمان الملقب بالملك العزيز.

ثالثا: ولاية حلب لابنه الظاهر.

أمّا أخوته، فكان نصيبهم على النحو التالي:

أولا: حماه والمعرة والرها وحران من نصيب أخيه تقي الدين.

ثانيا: ولايات بلاد الشام فكان تقسيمها على النحو التالي:

أ. الكرك والشوبك وقسم من الجزيرة العربية ومابين النهرين لأخيه الملك العادل.

ب. بعلبك للملك الأمجد بن توران شاه.

ج. حمص بيد ناصر الدين بن شيركوه.أي لابن عمه شيركوه الذي كان يصطحبه في الحروب ضد الصليبيين في مصر.

د. اليمن لأخيه طغتكين.

كان هذا الإرث عظيما، وكان في أيدي كثيرةٍ، أفرزت فيما بعد الصراعات والخلافات وحب الدنيا واعتلاء المناصب، فقد بدأت الصراع يدب في نفوس هؤلاء الورثة، وأخذت الخلافات لها مكانا في هذا الجو وفي هذه البيئة المتلاطمة الأطراف، فبدل أن تتوحد هذه القوى ضد الطامع الصليبي أخذت الخلافات تجد لها مكانا في واقعهم الجديد.

أما الطرف الآخر، فقد كان الصليبيون يعدون العدة لاستعادة القدس إليهم وسلبها من أيدي المسلمين وطردهم منها، علاوة على تدفق أعداد كبيرة من أوروبا لرفد هذا التوجه الصليبي الحاقد.

الفصل الخامس

المبحث الأول

القدس بعد عهد صلاح الدين

المطلب الأول: القدس في عهد الأفضل والعزيز ابني صلاح الدين

من المعلوم أن بيت المقدس، كانت من نصيب الأفضل الذي أدرك أن الصليبيين يعدون العدة لإعادة احتلال بيت المقدس من المسلمين، ولقد ربطنا حال بيت المقدس بين الاثنين لكونهما قد اشتركا في حكمها، وقد تنازل عنها الأفضل لأخيه العزيز في مصر لإمكانية حمايتها من الصليبيين.

وجد الأفضل من واجبه أن يحصن هذه المدينة بالأسوار، ويشحنها بالعتاد والرجال، وأن يقوم بالإصلاحات اللازمة داخل المدينة، وكان من أهم الإصلاحات التي قام بها الأفضل ما يلي:

1) إنشاء المدرسة الأفضلية الكائنة في حارة المغاربة والتي سميت باسمه، وهي وقف الملك الأفضل نور الدين أبي الحسن علي بن الملك صلاح الدين، تغمده الله برحمته، أوقفها على فقهاء المالكية بالقدس الشريف، ووقف أيضاً حارة المغاربة على طائفة المغاربة على اختلاف أجناسهم ذكورهم وإناثهم وكان الوقف حين سلطنته على دمشق، وكانت القدس قد أضيفت إليه،ولم يوجد لها كتاب، فكتب محضراً بالوقف لكل جهة وثبت مضمونه لدى حكام الشرع الشريف بعد وفاة الواقف، وثبت تاريخ سلطنته ووفاته قبل ذلك [1]

2) بناء المسجد العمري جنوبي كنيسة القيامة، حيث بني هذا المسجد على أساس مسجد قديم، وتم إعادة البناء وعمارته في سنة 589 م ويجد على حجر رخامي رقم حجري على باب المسجد بهذا النص: "بسم الله الرحمن الرحيم: أمر بعمارة هذا المسجد الشريف والدرجة المباركة مولانا الملك الأفضل نور الدنيا والدين خادم بيت الله المقدس، وحافظه من المردة والكافرين، أبو الحسن علي بن مولانا الملك صلاح الدنيا والدين يوسف بن أيوب، قدس الله روحه ونور ضريحه ابتغاء رضوانه، في شهور سنة تسع وثمانين وخمس مائة بتولي الفقير إلى (رحمة الله) عز الدين جرديك متولي الحرم بالبيت المقدس"

أدرك الملك الأفضل خطورة الوضع الذي يهدد القدس من الصليبيين الغزاة، وأيقن أنهم يعدون العدة لاسترجاعها لهم وطرد المسلمين منها، فأرسل كتابا إلى أخيه العزيز حاكم مصر يبلغه فيها بتنازله

(1) مجير الدين الحنبلي، مصدر سابق، ج2 ص 46 .

عن القدس لتكون تحت إمرة أخيه لأنه يمكنه الحفاظ عليها من الصليبيين، لما يتمتع به من منعة في الرجال والقوة في المال.

قبل الأخ العزيز هذا العرض، فأوفد إليها والياً من عنده اسمه عز الدين جرديك وزوده بعشرة آلاف دينار لينفقها في تقوية حصون المدينة، ومواقعها العسكرية، كما شحنها بعدد كاف من الجند.

كان الأفضل في دمشق، وقد غيّر رأيه، ونقض عهده، وخالف ما تم الاتفاق عليه بينه وبين أخيه، الذي هو أقدر منه على ما أوكل إليه، فنكث عما قام به من تنازل فيه عن القدس لأخيه، فأوفد إليه كتاباً آخر يعلمه فيه بإلغاء ما جاء في مكتوبة الذي تنازل فيه عن القدس لأخيه، ويعلن له فيه تمسكه بالقدس.

كان هذا الخطأ قاتلا، فالأفضل قام بهذا العرض على أخيه دون إكراه، لأن أخاه العزيز حاكم مصر لديه من القوة والمنعة في الرجال والمال ما يؤهله للحفاظ على القدس وصد المعتدين عنها، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، قد أثر هذا النكوص على نفسية أخيه العزيز مما دعاه إلى تجريد حملة عسكرية لغزو فلسطين والاستيلاء على فلسطين عنوة، حيث تدخل في فض هذا النزاع بينهما الحكام الأيوبيون وأنهي الخلاف قبل أن يشتبكا عسكرياً.

كان هناك عامل آخر خارج هذه اللعبة ألا وهو عمهما الملك العادل، الذي لم يهدأ له بال ولم يقر له قرار، فرأى من مصلحته إعادة احتدام الصراع بين الأخوين الأفضل والعزيز، لحاجة في نفسه، وتمكّن من تأليب قلب العزيز على الأفضل، مما دفع العزيز لإعادة تجريد حملة عسكرية أخرى، على أخيه الأفضل حيث استولى على بيت المقدس، وآلت إلى ملكه،فأصبح ملكاً على القطرين الشامي والمصري في آن واحد.

بعد أن استتب الأمر للملك العزيز على هذه الديار، قام بزيارة إلى القدس الشريف عام 592هـ وفق 1195 م، كان من نتائج هذه الزيارة هو إقالة حاكمها أبا الهيجاء السمين وعين الأمير شمس الدين سنقر بدلا منه.

المطلب الثاني: القدس في عهد الملك العزيز

الأوقاف على القدس - أوقف قرية دير أبي ثور وأراضي القمرة الشرقية والغربية وأراضي خربة سميرة على الشيخ أحمد الثوري، ثم على أولاده وذريته وفي حال انقطاع النسل على بر لا ينقطع قال صاحب الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل "وإلى جانب البقعة من جهة الشمال قرية تعرف بدير أبي ثور، وهي قرية صغيرة من بناء الروم، يعرف قديما بدير ما قيبوس ثم عرف بدير أبي ثور نسبة إلى الشيخ أحمد المشهور بأبي ثور، وكان رجلاً صالحاً، وقد وقف الدير المذكور عليه وعلى ذريته الملك

العزيز أبو الفتح عثمان بن الملك صلاح الدين في سنة 594هـ وفق 1197م، ولما توفي الشيخ احمد أبو ثور دفن بها، وقبره مشهور يزار ويتبرك به وله ذرية معروفون، وبعضهم مقيم بالقرية المذكورة وهي قريبة من باب المدينة المعروف الآن بباب الخليل [1]

المطلب الثالث: القدس وفشل مؤامرة الأمراء

كانت ديار مصر والشام قد آلت إلى الملك العزيز، بيد أنه انتقل إلى رحمته تعالى بتاريخ 27 محرم سنة 595 هـ وفق 1198 م.

كان وريثه في الحكم ولده الملك المنصور محمداً، الذي كان صغيراً لم يبلغ التاسعة من العمر، حيث رتّب له (أتابكا) وصياً ألا وهو الأمير بهاء الدين قرقوش، ومن المعلوم أن هذا الشخص لم يكن على درجة من الحنكة، فكان مكروها بين أفراد الشعب فظ المعاملة مع الآخرين، وقد بقي اسمه مقرونا بالقسوة حتى أيامنا هذه.

نظراً لفساد الأوضاع وترديها آنذاك، فقد كانت محط أطماع الطامعين وتآمر المتآمرين على هذا النظام، مما حدا بمجموعة من الأمراء وعلى رأسهم فخر الدين جهاركس أحد أمراء مصر بأن يحيك مؤامرة على الملك الشاب، وأحضر معه سبعمائة فارس من مصر، فتحالف مع عدد من الأمراء واشترك في هذه المؤامرة على قلب نظام أمير القدس الأمير صارم الدين صالح.

كاتب هؤلاء المتآمرون الملك العادل في دمشق، بيد أنهم لم يفلحوا في هذه المؤامرة التي تحطمت على صخرة تصدي الملك الأفضل لهم.

نشب للتصدي إلى هذه المؤامرة الملك الأفضل بن صلاح الدين، الذي استولى على ملكه أخوه العزيز، حيث أنه لم يرق له أن يستولي هؤلاء المتآمرون على ملك بن أخيه الملك الشاب المنصور محمدا، فألقي القبض على بعضهم وفرّ البعض الآخر، ولم يكتف بالاستيلاء على القدس بل سار إلى مصر واستطاع إعادة السيطرة والهيمنه للملك الأفضل، فقد تحول الوضع في بلاد مصر والشام على النحو التالي:

1) مصر ويحكمها الملك الشاب لكن بوصاية ابن عمه الأفضل.
2) دمشق ويحكمها الملك العادل.

كانت القدس خلال هذه الفترة تابعة لمصر، ولم تكن من أعمال دمشق، على الرغم من أنها من بلاد الشام، لكن أهل هذه المدينة المقدسة، كانوا يميلون إلى الملك العادل في دمشق، ويكنون له الولاء والاحترام، وكان الوضع فيها مترديا بحيث أصبح الغلاء يعم المدينة.

---

(1) مصطفى مراد الدباغ، مصدر سابق، ج9 ص 212.

عانى الملك الأفضل من مواقف أخوته وعمومته ما أبعده عن الحكم، فكانت المرة الأولى باستلاب الحكم منه على يد الملك العزيز ملك مصر، الذي تنازل له عن القدس، ثم عاد ونكث وعده وعانى من تآمر الملك العادل ضده وإيقاع الفتنة بينه وبين الآخرين من أقاربه، علاوة على هبّته الأخيرة التي كانت ضد المتآمرين على الملك الشاب المنصور محمدا، والواقع أن كل حياة هذا الشخص لم تكن لصالحه، ولربما كان هذا لتصرفه الذي نهجه في بدايات عهده عندما تنازل لأخيه عن القدس، ثم عاد ونقض العهد، مما دفع أخيه الملك العز باستلابه الملك منه، كما أنه ترك فجوة من الكراهية بينه وبين الطامعين في الحكم وعلى رأسهم عمه الملك العادل، الذي تغلب عليه واستطاع بعد ذلك دخول مصر وأصبح هو الوصي على المنصور بدل الأفضل، وأخيرا تحقق طوح الملك العادل بحيث أصبح ملكا على كل من الشام ومصر، وبهذا فقد أعيد توحيد المملكة الأيوبية في عهد الملك العادل.

المطلب الرابع: التآمر الصليبي على القدس في عهد الملك العادل

يعتبر الملك العادل من دهاة الأيوبيين لما يتمتع به من حنكة وقدرة، فقد استطاع وعلى مدى العديد من السنوات أن يترك شرخا بين أبناء أخيه مما جعلهم يتطاحنون في حروب عدة، وتمكن من إضعافهم وأخيرا آل الملك إليه، وأصبح ملكا على كل من مصر والشام، وبهذا فقد اتسعت مملكته وزادت مسؤولياته وقوي جانبه، أما الصليبيون فلم يكونوا بمنأى في التفكير بالعودة إلى القدس، فقد كانت في وجدان ملوكهم، لأنهم خرجوا منها مدحورين في عهد صلاح الدين، والآن فإنهم يخططون وبكل دهاء إلى العودة إلى القدس تحت أي ظرف من الظروف، علّهم يستعيدون مجداً ضائعاً بالأمس فقدوه.

استطاع الملك العادل أن يستغل العداء الواقع بين أمراء الصليبيين من جهة وبين الملك الأسمى المسمى "أمارليك" لبيت المقدس الذي كان يحلم بإعادة احتلال القدس، لكن الملك العادل استطاع أن يستثمر هذا العداء الواقع بينه وبين بقية الأمراء الصليبيين وأن يعقد معه هدنه لمدة ست سنوات، ففي هذه المدة استغل الملك العادل هذه الفرصة استغلالاً جيداً، بحيث أنه استطاع أن يبني جيشاً قوياً ويعد حصوناً منيعة في القدس ويدعم الممالك التابعة له لأنه كان يخشى نقض الصليبيين للمعاهدة يوما ما، فيكون بذلك قد أمن الجبهة الداخلية، كما أنه نال البلاد في هذه الفترة من الحكم شيء من الاستقرار.

المطلب الخامس: مصر خط الدفاع الأول عن القدس

على الطرف الآخر، فإن للصليبيين دور هام في مناجزة المسلمين، فقد عقد البابا مجمعاً كنسيا عام 613 هـ وفق 1215 م دعا فيه إلى تأليف حملة ضخة من الفرنجة، ومهاجمة مصر، وبذلك تتحقق للصليبيين الأهداف الإستراتيجية التالية، من أجل الدخول إلى القدس، لأن مصر تعتبر بحق خط الدفاع

الأول عن فلسطين، فبإضعاف مصر تكون القدس لقمة سائغة للقوات الصليبية فيسهل بذلك السيطرة على الشرق الإسلامي وتدين البلاد لهم مرة ثانية.

بهذا تكون خطة الصليبيين الإستراتيجية من احتلالهم لمصر، السيطرة على هذا المورد البشري الضخم والمالي الكبير، الذي يرفد الجبهة الإسلامية، علاوة على تواجدهم بالقرب من بيت المقدس، فيكون الطريق مفتوحاً إليهم في هذه القاعدة، وبالفعل تم تجنيد هذه الحملة الصليبية الضخمة وتوجهت إلى دمياط، وعندما بلغ الملك العادل احتلال الصليبيين لدمياط تأوه تأوها عميقاً وأسف أسفاً شديداً وحزن حزناً عظيماً، وأدرك أن الصليبيين قد غدروا به ونقضوا العهود والمواثيق المبرمة بينهم، والتي ما كان يظن أنهم ينقضونها لشدة العهود والمواثيق التي كانت بينهم.

أدرك الملك العادل أنه لا بد من تقسيم ملكه بين ورثته قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى، حيث قام بتقسيم ملكه على النحو التالي:

1- مصر من نصيب ولده الكامل ناصر الدين.
2- الشرق تحت إمرة الأشر ف مظفر الدين موسى.
3- من العريش حتى حمص للملك المعظم شرف الدين عيسى، بما فيها القدس.
4- منطقة الشمال (خلاط وميافارقين) لولده الأوحد نجم الدين أيوب.

أمّا الملك العادل فقد احتفظ لنفسه بالسيادة العليا على جميع هؤلاء الملوك، بحيث كان مرجعية لهم جميعاً وتحت إدارته المباشرة، حيث أن الصليبيين قد استولوا على جزء من مصر وتمركزوا في دمياط فقد وافت المنية الملك العادل وانتقل إلى رحمته تعالى.

المطلب السادس: القدس في عهد الملك العادل

لم تكن القدس بمنأى عن جهد يبذله كل خليفة أو ملك أو قائد أو أمير مسلم حل هذه الديار، فهي كنز الملوك، وبها مآثر الخلفاء، وتراث القادة والأمراء، فما من إنسان حكم في هذه الديار، إلاّ وآثر أن يترك له أثراً، أو أن يخلد له بصمة، أو يبني بنيانا، أو يقدم مأثرة في بيت المقدس، لأن القدس سجل التاريخ ورمز الحضارات المتعاقبة وكنز الأمم، فكيف وأن الملك العادل، لم تفته هذه الفطنة، فلا بد له من يترك له بصمات تخلد ذكره في البلد المقدس، ومن أهم مآثره في القدس ما يلي:

1) سقاية المسجد الأقصى المبارك ومطهرته، عام 599 هـ وفق 1202 م وقد نقش على حجر رخامي بالخط النسخي الأيوبي القديم وبأحرف صغيرة، الكلمات التالية: "بسم الله الرحمن الرحيم: أمر بعمل هذه السقاية المباركة السعيدة، مولانا السيد الأجل الملك العادل المظفر الهمام ناصر الإسلام غياث الأنام، سيف الدنيا والدين سلطان جيوش المسلمين أبو بكر

محمد بن أيوب خليل أمير ألمؤمنين، أدام الله قدرته وأعلى أبداً كلمته ونصر في الخافقين أعلامه وألويته بمحمد وآله وذريته، في شهر شوال سنة تسع وتسعين وخمسمائة. والحمد لله وصلواته على سيدنا محمد وسلم تسليماً"

2) توفي في نفس السنة 599 هـ وفق 1202 م الزاهد أبو عبد الله محمد بن أحمد القرشي الهاشمي الأندلسي ودفن في بيت المقدس.

3) جاء في النجوم الزاهرة ج6 ص 172 أنه كان للملك العادل أبن آخر يدعى الملك الأمجد حسن، وأن هذا توفي في حياة أبية ودفن في القدس في مدرسة سميت باسمه.[1]

4) لئن دل هذا على شيء فإنما يدل على تمسك الملك العادل بالقدس، واهتمامه بها، حيث أنه أودع في ثراها فلذة من فلذات كبده لتبقى له بها ذكرى.

وفاته: توفي الملك العادل عام 615 هـ وفق عام 1218 م وترك في خزانته سبعمائة ألف دينار، وقد استولى عليها ابنه المعظم عيسى، حيث كانت القدس من أعماله، وكان يديرها الأمير عز الدين عمر بن يغمور المعظمي،وأدارها خلفا له الأمير بدر الدين الهكاري، كان الملك المعظم عيسى يحب القدس كثيراً، حتى أنه لما انتصر على الفرنجة في السواحل رآهم مكبلين إلى القدس.

المطلب السابع : القدس في عهد الملك الأفضل عيسى

لقد ترك الملك المعظم شرف الدين عيسى آثاراً جمة في القدس، يمكن ذكرها كما هو مبين:

1) الأروقة السبعة الواقعة أمام المسجد الأقصى المبارك من الجهة الشمالية علاوة على الأبواب الخشبية من جهة الشمال للمسجد الأقصى المبارك، حيث تم إنشاؤها عام 634 هـ وفق 1236م.

2) برج القلعة: وقد تم إنشاء البرج الكائن في وسط القلعة بباب الخليل، مكتوب على حجر كلسي على أحد جدرانه النقش التالي " بسم الله الرحمن الرحيم. لا إله إلا الله محمد رسول الله.عمل هذا البرج المبارك بأمر مولانا الملك المعظم شرف الدنيا والدين الألبي المظفر عيسى بن الملك العادل سيف أبي بكر محمد بن أيوب بن شاذيهو تولى عمارته عز الدين عمر بن يغمور المعظمي. في شهور سنة عشر وستمائة والحمد لله رب العالمين " 610 هـ و- 1213م.

(1) عارف العارف، مصدر سابق، ص 184.

3) المدرسة المعظمية: ويقال لها أيضا "الحنفية" واقعة عند باب المسجد الأقصى المعروف بباب الدواداريه (الباب العتم). أوقف عليها الكثير من القرى التي صارت فيما بعد بأيدي الناس إقطاعاً وملكاً، وقد أوقفها على علماء الحنفية، فأصبحت فيما بعد خرابا.
4) المدرسة النحوية: بنيت في الجهة القبلية من صحن قبة الصخرة المشرفة عام 604هـ وتدرس فيها علوم اللغة العربية، وأوقف عليها أوقافا كثيرة، ومازال هذا البناء قائماً حتى وقتنا الحاضر، الذي يجلس فيه أعضاء مجلس الأوقاف.
5) المدرسة البدرية: تم إنشاؤها على يدي الأمير بدر الدين محمد الهكاري سنة 610هـ، تقع في الجانب الغربي من الشارع الكائن بين شارع باب السلسلة وشارع السرايا، المعروف بشارع الواد. وهي الآن بيت معد للسكن، وقد أوقفت على فقهاء الشافعية، وقد اندثرت هذه المدرسة ولم يبق منها إلا أثر بسيط، وكتب على بابها النقش التالي "بسم الله الرحمن الرحيم، أنشأ هذه المدرسة المباركة لأصحاب الإمام الشافعي (رضي الله عنهم) المولى الكبير الغازي المجاهد بدر الدين محمد بن أبي القاسم الهكاري رحمه الله، وتقبل منه في سنة 610 هـ – 1213 م وجعل نظرها إلى الأرشد من أولاده كثرهم الله تعالى وجعل سعيهم مشكوراً وذنبهم مغفوراً ورحمه الله ولمن ترحم عليه".
6) سبيل شعلان: بني هذا السبيل في الجهة الشمالية من الحرم القدسي الشريف عام م613 هـ 1216 م وقد بني بالقرب من الرواق الذي بناه الملك المعظم عيسى.
7) تجديد باب حطه: فقد تم تجديد هذا الباب على يدي الملك المعظم عيسى عام 617هـ وقد كتب على بابه النقش التالي "جدد هذا الباب في أيام دولة السلطان الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل سيف الدين أبي يكن بن أيوب وذلك في رجب سنة 617 هـ – 1219 م.

على الرغم من حب هذا الملك للقدس، واهتمامه بها، وجلب الأسرى إليها مكبلين منكسي الأعلام، حينما انتصر على الفرنجة في سواحل فلسطين"[1] كما وأنه قد شيد في القدس أبنية كثيرة وترك آثاراً عديدة، إلا أن الحظ لم يسعفه في النهاية، فتغير الحال وعندما علم باستعداد قوات الفرنجة احتلال القدس، أمر بهدم أسوارها وأمر بإخراج الأسلحة منها وقد ساء هذا العمل أهل القدس، فخرجوا يبكون ووصف هذا الحال شعراً قاضي الطور مجد الدين بن محمد بن عبد الله الحنفي

مررت على القدس الشريف مسلماً على ما تبقى من ربوع كأنجم

(1) المقريزي، مصدر سابق، ج6 ص 223.

ففاضت دموع العين مني صبابة على ما مضى من عصره المتقدم
وقد رام علجا أن تعفى رسومه وشمرعن كفي لئيم مذمم
فقلت له شلت يمينك خلها لمعتبر أو سائل أومسلم
فلو كان يفدى بالنفوس فديته بنفسي وهذا الظن في كل مسلم

وفي هذه الحال فقد أورد لنا المقريزي في كتابه النجوم الزاهرة، حادثة خراب القدس على يدي الملك المعظم عيسى:

"سنة ست عشرة وستمائة أخرب الملك المعظم عيسى صاحب دمشق القدس، لأنه كان توجه إلى أخيه الملك الكامل صاحب الترجمة في نوبة دمياط، في المرة الأولى، فبلغه أن الفرنجة على عزم أخذ القدس فاتفق الأمراء على خرابه، وقالوا: قد خلا الشام من العساكر، فلوا أخذوا القدس حكموا على الشام جميعه، وكان بالقدس أخوه العزيز عثمان وعز الدين أيبك إستا دارا. فكتب إليهما المعظم بخرابه فتوقفا، وقالا نحن نحفظه، فكتب إليهما المعظم ثانيا، لو أخذوه لقتلوا كل من فيه وحكموا على الشام وبلاد الإسلام، فألجأت الضرورة إلى خرابه، فشرعوا في خراب السور في أول يوم من المحرم، ووقع في البلد ضجة عظيمة، وخرج النساء والمخدرات والبنات والشيوخ وغيرهم إلى الصخرة المشرفة والأقصى، وقطعوا شعورهم ومزقوا ثيابهم وافعلوا أشياء من هذه الفعال، ثم خرجوا هاربين وتركوا أموالهم وأهاليهم وما شكوا أن الفرنجة تصبحهم، وامتلأت بهم الطرقات فتوجه بعضهم إلى مصر، وبعضهم إلى الكرك، وبعضهم إلى دمشق، وكانت البنات المخدرات يمزقن ثيابهن ويربطنها على أرجلهن من ألحفا، ومات خلق كثير، من الجوع والعطش، ونهبت الأموال التي كانت لهم بالقدس، وبلغ ثمن قنطار الزيت عشرة دراهم والرطل النحاس نصف درهم وذم الناس المعظم فقال بعض أهل العلم، في ذلك في رجب حلل ألحميا وأخرب القدس في المحرم. "[1]

المطلب الثامن: القدس في عهد الملك الكامل بن الملك العادل

من المعلوم أن القدس كانت من نصيب الملك المعظم شرف الدين عيسى، أما الملك الكامل فإن له شأن آخر في هذا المجال، فقد استطاع أن يوّحد جيشه ويقوي تسليحه وأن يقف في وجه الصليبيين، مما مكنه من الثبات أمامهم حيث طلبوا منه وقف القتال بين الجانبين، وأعلنت الهدنة على أن يستجيب للشروط التالية فاستجاب لهم وهي:

(1) المقريزي، مصدر سابق، ص 245.

1. التنازل عن بيت المقدس للصليبيين، وهذا شرط لا بد من التنويه إليه حيث أن القدس لم تكن ضمن أملاك الملك الكامل بل كانت من أعمال الملك الأفضل عيسى شقيق الملك الكامل.
2. تسليمه الصليب الذي استولى عليه صلاح الدين للصليبيين.
3. إعادة جميع الأسرى.

كل هذه الشروط مقابل جلاء الصليبيين عن دمياط، بيد أن الصليبيين عادوا فنكثوا هذه الهدنة واحتدم الصراع المسلح، وفي هذه الفترة قويت شوكة الملك الكامل، وتحسن وضع جيشه مما أدى إلى انسحاب الصليبيين من المعركة خاسرين، فقويت بذلك شوكة الملك الكامل بوحدة الأمة، وبهذا فإن الصليبيين لم يحرزوا الاستيلاء على القدس، ولم تتحقق آمالهم التي بنوها لإعادة القدس إلى ملكهم وانتزاعها من المسلمين، فخسر الصليبيون معركة دمياط، وخرجوا منها، كما أنه لم تتحقق أهدافهم بالوصول إلى القدس.

يصف لنا المقريزي هذه الحادثة كما يلي " ووقع الصلح بين الملك الكامل وبين الفرنجة في يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رجب سنة ثماني عشرة وستمائة، وسار بعض الفرنجة في البر وبعضهم في البحر إلى عكا وتسلم الكامل دمياط.

قلت ويعجبني قول البارع كمال الدين علي بن النبيه في مدح مخدومه الملك الأشرف موسى لما حضر مع أخيه المعظم إلى دمياط في هذه الكائنة قصيدته التي أولها:

للـــذة العـــيش والأفـــراح أوقـــات فانـــشر لـــواء لـــه بالنـــصر عـــادات

إلى أن قال فيها:

دميـــاط طـــور ونـــار الحـــرب موقـــدة وأنـــت موســـى وهـــذا اليـــوم ميقـــات

الـــق العـــصا تتلقـــف كـــل مـــا صـــنعوا ولا تخـــف فمـــا حبـــال القـــوم حيـــات

وهي قصيدة طويلة مثلبة في ديوان ابن النبيه.

قال أبو المظفر، قال فخر الدين بن شيخ الشيوخ لما حضر الإفرنج دمياط، صعد الكامل على مكان عال وقال لي، ما ترى ما أكثر الفرنجة، ما لنا بهم طاقة، قال: فقلت له: أعوذ بالله من هذا الكلام، قال ولم قلت لأن السعد موكل بالمنطق.قال: فأخذت الفرنجة دمياط بعد قليل، فلما طالت الحصار، صعد يوماً إلى مكان عالٍ، وقال يا فلان: ترى الفرنجة ما أقلهم والله ما هم شيء. فقلت أخذتهم والله، قال وكيف؟ قلت: ، قلت في يوم كذا، وكذا، كذا، وكذا. فأخذوا دمياط وقد قلت اليوم كذا والملوك منطقون بخير وشر، فاخذ دمياط بعد قليل.

في السنة الأولى من ولاية الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب على مصر، وهي سنة ست عشرة وستمائة، وقد تقدم أن الكامل كان ولي مصر في حياة والده العادل سنين عديدة، فلا عمدة لولايته تلك الأيام، فإنه كان كالنائب في مصر لأبيه العادل ولا عبرة إلا بعد استغلاله السلطة بسلطنة مصر بعد وفاة أبيه".[1]

كان الملك الكامل يحكم مصر والملك المعظم عيسى يحكم بلاد الشام وبعد وفاته انتقل الملك إلى ولده الملك الناصر صلاح الدين داود حيث كان صبيا، كانت أطماع الملك الكامل تتوجه صوب ملك هذا الشاب فتوجه بجيش من مصر، واستطاع أن يستولي على ملكه عام 625 هـ.

حدثت الهدنة المشؤمة التي مرّ ذكرها بين الإمبراطور فردريك والملك الكامل لمدة عشر سنوات وخمسة أشهر وأربعين يوماً وتحالف الملكان على هذه المعاهدة التي كان من نتيجتها أن أصدر هذا الملك أمراً إلى أهل القدس بمغادرة المدينة وتسليمها إلى الفرنجة فاشتد البكاء والصراخ والعويل فغادر قسم منهم فتوجه إلى مصر، والآخر إلى الشام والباقي إلى الكرك.

حضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل، وأذنوا على بابه في غير وقت الأذان فعز عليه ذلك وأمر بأخذ ما كان معهم وزجرهم وقال لهم: امضوا إلى حيث شئتم فأنكر المسلمون عليه هذا العمل وراحوا يشنفونه في كل الأقطار.

"استأذن الإمبراطور بالدخول إلى القدس، فأذن له ورافقه القاضي شمس الدين قاضي نابلس وطاف معه في المزارات فأعجب الإمبراطور بالأقصى والصخرة، وصعد درج المنبر فرأى قسيسا بيده الإنجيل فزجره وأنكر مجيئه، وأقسم إن عاد أحد من الفرنجة بغير إذن ليأخذن ما فيه عيناه. فأما نحن معاك هذا السلطان الملك الكامل وعبيده، وقد من علينا وعليكم بهذه الكنائس على سبيل الإنعام منه، فلا يتعدى أحد منكم طوره، ثم نزل الملك في دار، وأمر شمس الدين قاضي نابلس المؤذنين، ألا يؤذنوا تلك الليلة. فلم يؤذنوا، فلما أصبح الصباح، قال الملك للقاضي: لم يؤذن المؤذنون على المنابر؟. فقال له القاضي: منعهم المملوك إعظاما للملك واحتراما له. فقال له الإمبراطور: أخطأت فيما فعلت، والله إنه كان أكبر غرض في المبيت في القدس، أن أسمع أذان المسلمين وتسبيحهم.

وعلى قول أحد المؤذنين واسمه عبد الكريم، أذّن في تلك الليلة وقت السحر، وكان الإمبراطور نازلا في دار القاضي. فجعل المؤذن يقرأ الآيات التي تخص النصارى مثل قوله تعالى: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ ﴾ و(ذلك عيسى بن مريم) ولكن القاضي أمره ألا يؤذن في الليلة التي تليها،فلم يؤذن. فسأل الإمبراطور عن السبب،

(1) المقريزي، مصدر سابق، ص 243.

فقال الإمبراطور: أخطأتم يا قاضي. أتغيرون أنتم شعاركم وشرعكم ودينك لأجلي، فلو كنتم عندي في بلادي، هل كنت أبطل ضرب الناقوس لأجلكم، بالله لا تفعلوا. هذا أول ما تنقصون عندنا".[1]

هذه الأخبار عن موقف الملك الكامل وكيفية تعامله مع الفرنجة وكيفية تفريطه بالقدس ! هذا موقف لا بد من الوقوف عنده هنيهة، لعل المرء يساءل نفسه عن هذا السلوك الذي أقترفه الملك الكامل في أمرين هامين ألا وهما:

أولا: تنازله عن القدس لصالح الفرنجة التي لم تكن تحت إمرته.

ثانيا: دخول الإمبراطور الإفرنجي إلى القدس وتعطيل بعض الشعائر الدينية لأجله مما أثار استهجانه واستغرابه كمنع رفع الأذان.

هذان أمران هامان فرّط بهما الملك الكامل، ولعل عمله بهذا كان لأسباب داخلية في نفسه. ولربما لإبعاد غائلة استيلاء الفرنجة على ملكه في مصر، وتأمين الجبهة الخارجية، أو لأن له أطماع في ممالك غيره من أقاربه ليتخذ من هذا الخصم تهدئة ليوسع ملكه على حساب غيره، لكن هذا التناقض عجيب وغريب من ملك يحكم مصر وقد حاز على إرث ليس باليسير الحصول على مثله، فهذا الانقلاب في تصرف هذا الملك يجعل الأمر في غاية الخطورة والاستغراب!؟.

ولربما أنه نهج هذا السلوك تيمنا بالقائد الكبير صلاح الدين، عندما هدم جزءاً من السور معللا هذا الشأن ابن بطوطة في رحلته حيث يقول (كان الملك الصالح الفاضل صلاح الدين بن أيوب جزاه الله عن المسلمين خيراً لفتح هذه المدينة، وهدم بعض سورها ثم استنقض الملك الظاهر هدمه خوفاً أن يقصدها الروم فيتمنعوا بها، ولم يكن بها نهر، فيما تقدم وجلب لها الماء في هذا العهد الأمير سيف الدين تنكز[2].

كان لهذا النهج الذي سلكه الملك الكامل بتفريطه ببيت المقدس، وما آل إليه الحال السبب الكبير في سخط الناس عليه، فلم يرق لابن أخيه الملك الناصر ملك دمشق هذا التصرف حيث قام بتحريض المسلمين على الملك الكامل، علاوة على قيام ابن الجوزي بإلقاء الدروس متحدثاً عن فضائل بيت المقدس أمام المصلين المسلمين، مما زاد في تشوق الناس لبيت المقدس، وهيجانه والتحامل على الملك الكامل، فألقى قصيدة بعنوان منها هذه الأبيات:

على قبة المعراج والصخرة التي ... تفاخر ما في الأرض من صخرات

مدار آيات خلت من تلاوة ... ومهبط وحي مقفر العرصات

---

(1) عارف العارف، مصدر سابق، ص 188 .

(2) إبن بطوطة،رحلة بن بطوطة ج1 ص 76 .

بقيت نفس الملك الكامل تواقة إلى احتلال دمشق من ابن أخيه، وأخيراً تمكن من احتلالها حيث أعطاه الكرك والسلط والبلقاء ونابلس وأعمال القدس وبيت جبرين، وأصبح الكامل ملكا على مصر والشام والشوبك وطريه وغزه وعسقلان والرملة ولد والساحل الذي كان تحت سيطرة المسلمين.

كان الصراع محتدما بين هؤلاء الأمراء، فالحرب لم تتوقف إلا هنيه بينهم، والصراع على الملك كان غايتهم، وبعد وفاة الملك الكامل، انتقل الملك إلى ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب، وتجددت الحرب بينه وبين ابن عمه، واستولى على معظم ملكه، بيد أن الملك الناصر عاد واسترد ما فقد منه، وتمكن من أسر إبن عمه الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل.

من المعلوم أن القدس في هذه الفترة كانت بأيدي الصليبيين، فهاجمها الملك الناصر واستطاع الاستيلاء عليها من الفرنجة، فوفد عليه يهنؤه ابن الجوزي، ومعه الشاعر المصري جمال الدين بن مطروح الذي أنشد في هذه المناسبة الأبيات التالية:

المسجد الأقصى له عادة ... سارت فصارت مثلا سائرا

إذا غدا بالكفر مستوطنا ... أن يبعث الله له ناصرا

فناصر طهره أولا ... وناصر طهره آخرا

المطلب التاسع: صراع ملوك الأيوبيين على القدس

في عام 627 هـ أفرج الملك الناصر داود عن إبن عمه الملك الصالح نجم الدين أيوب، وتقاسما الملك على أن تكون ديار مصر للملك الصالح، وديار الشام وبلاد المشرق للمك الناصر، أطلت الفتنة بينهما من جديد، وراحا يتصارعان على النفوذ، اتفق الملك الناصر داود صاحب الكرك والملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق ضد الملك نجم الدين صاحب مصر، واتفق الملكان الأولان على التنازل عن القدس لصالح الفرنجة، على أن يكون الفرنجة عونا لهما ضد إبن عمهما، وبالفعل ضاعت القدس، ووقعت بأيدي الفرنجة من جديد.

استعان الملك الصالح نجم الدين أيوب الخوارزمية في بلاد ما وراء النهر، ووعدهم ببلاد الشام، وكان على رأسهم الأمير حسام الدين بركه خان، فاقتحموا القدس، وقتلوا من فيها من النصارى، وكانت الوقعة الكبرى بين الطرفين أهل الشام ومعهم الفرنجة، وأهل مصر ومعهم الخوارزمية، حيث التقى الجمعان في غزة، ودارت معركة شرسة، كان النصر حليف الخوارزمية وجند مصر، فقتل من الطرف الآخر والفرنجة ما يربو على الثلاثين الفا، واستولى على القدس وكانت تحت إمرة الملك الصالح نجم الدين أيوب.

في عام 644 هـ زار الملك نجم الدين أيوب القدس، وكانت له مآثر جمة في هذه الزيارة منها:

1. تصدق بألفي دينار على فقراء بيت المقدس.
2. أمر بإصلاح سور المدينة المقدسة الذي كان طوله ستة آلاف ذراع.

لم تدم الحال على ما كانت عليه حيث أن الملك نجم الدين أيوب لم يف بوعده بإعطاء الخوارزمية الشام، وأصبحوا ضده مع الطرف الآخر الذي حاربوه بالأمس، بيد أن الأمير حسام الدين بركه خان قتل، ونقلت جثته للقدس ودفن هو وولده في المكتبة الخالدية، ونقشت على قبورهم العبارات التالية:

كتب على الأول (كل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام. هذا قبر الفقير إلى رحمة الله تعالى حسام الدين ملك الأمراء البركة خان، توفي في سنة أربع وأربعين وستمائة غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين) 644 هـ – 1244 م.

وكتب على الثاني " بسم الله الرحمن الرحيم، كل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار، هذا قبر العبد الفقير الراجي رحمة الله وغفرانه حسام الدين كره بك بن بركتخان، نور الله ضريحه، توفي ثالث ذو الحجة إحدى وستون وستمائة للهجرة، غفر الله له ولوا لدية ولجميع المسلمين وصلى الله على محمد وآله أجمعين " 661 هـ – 1263 م.

وكتب على الثالث "بسم الله الرحمن الرحيم. يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم، خالدين فيها إن الله عنده أجر عظيم.، هذا قبر العبد الفقير الراجي رحمته وغفرانه الأمير الكبير بدر الدين محمد بك بن بركتخان، توفي مستهل ربيع الأول لثمان وسبعين وستمائة 678 هـ "وقد نقش على نافذة الخزانة والمقبرة ما يلي:

" بسم الله الرحمن الرحيم: كل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذوا لجلال والإكرام، ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين، ربنا آتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد، يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعا، إنه هو الغفور الرحيم " هذه تربة العبد الفقير إلى الله وغفرانه بركتخان. نَوَر الله ضريحه، توفي يوم الجمعة مستهل محرم وكتب سنة أربع وأربعين وستمائة. غفر الله له ولوالديه ولمن دعا له بالمغفرة، آمين يا رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين " 1244 "ياك إز عدم آمديم ونياك شديم أسوزه درامديم وغماك شديم بود يم زخاك تيرة وزآتس آب بازدرخاك شديم " ونقش ايضا على عتبة النافذة: –

" أنشأ هذا الشباك والقبة به المرحوم الشهيد الملك حسام الدين بركه خان مع باب القنطرة وعلوها والبوابة المباركة والمسقاة والحوانيت وعلوهم وخمسة بيوت بدار الواقف الفقير إلى الله تعالى محمد بن أحمد العلائي لطف الله تعالى به في مستهل ذي القعدة سنة إثنين وسبعين وسبعمائة " 1370 م [1]

هناك ملاحظ هامه يجب ألا نتجاوزها في سياق الحديث، عن مجمل الصراع الذي وقع بين الملك الكامل والصليبيين، حيث أنه استطاع أن ينتصر عليهم وأن يحرر مصر منهم،بيد أن للصليبيين أطماع أخرى، وأهداف طالما حرصوا على تحقيقها منذ زمن بعيد، ألا وهي احتلال بيت المقدس من أيدي المسلمين، لقد وقّع الملك الكامل معاهدة مع الصليبيين وكان من ضمن شروطها التنازل عن القدس لهم.، فكيف يتنازل هذا الملك عن ملك لا يملكه وبلد لا يحكمه، حيث أن القدس كانت من أعمال أخيه الملك الأفضل عيسى ملك الشام، إن هذه المفارقة عجيبة غريبة، ولربما نعللها بألا يقف في طريق الصليبيين عندما يهاجمونها أو يساند أخاه في مواجهة الصليبيين؟!.

المطلب العاشر: القدس الشامخة ترفض المحاولات اليائسة لفرنجتها

القدس عربية إسلامية منذ تأسيسها، فمهما حاول المعتدون أو المحتلون من تغيير واقعها، أو طمس معالمها، فلا بد للحقيقة من الظهور، فمهما حاول الفرنجة وبكل ثقلهم المادي والعسكري الذي استغرق عشرات السنين، للتأثير على القدس وإبقائها في أيديهم، لكنهم في النهاية فشلوا فشلا ذريعاً، فالعرب والمسلمون لا يمكن أن يتنازلوا عن القدس أو الأماكن الإسلامية في بيت المقدس مهما كلفهم ذلك من ثمن، ودفعوا من أجل تحريرها من أرواح، فالقدس جزء من العقيدة الإسلامية ،فأي تفريط بها يعتبر تفريطاً بالعقيدة، وهذا ما لا يوافق أن يتحمله أي مسلم في مشارق الأرض ومغاربها، لأن القدس جزء من لباب العقيدة الإسلامية.

قدم الفرنجة في العصور الوسطى غزاة لبيت المقدس وأكناف بيت المقدس، علّهم يجدون لهم مكاناً يلجأون إليه أو يستظلون بظله، بيد أن جميع محاولاتهم قد باءت بالفشل الذر يع، حتى في أيام حكمهم وغطرستهم، لم تهدأ لهم أحوال، ولم يستقر لهم قرار، وأن الحرب والمناوشات لم تتوقف على الإطلاق بين أهل البلاد الأصليين والغزاة المحتلين.

لقد كان شعارهم تحرير قبر السيد المسيح من أيدي المسلمين في فلسطين واستطاعوا أن يبنوا لهم كيانا مؤقتا، بيد أن هذا الكيان لم يدم وأخيراً اندحروا، وتحطمت أحلامهم على أسوار بيت المقدس، وعادت لأصحابها الشرعيين.

---

(1) عارف العارف، مصدر سابق، ص 192.

جرت عدة محاولات من هذه القوة الغاشمة لإعادة القدس لأحضانهم، بيد أنها كانت فترات بسيطة، وأعادها أصحابها الشرعيون إلى أحضان حاضرة العالم الإسلامي.

- **المرحلة الأولى:** كانت الحروب الصليبية التي بدأت عام 1099 م واستمرت لعام 1187 م والتي استغرقت ثمانية وثمانين عاماً، وتم تحريرها على يدي القلائد الفذ صلاح الدين الأيوبي.
- **المرحلة الثانية:** فقد كانت في عام 1229 م واستغرق احتلالها لمدة عشر سنوات أي لغاية عام 1239م إثر الاتفاقية الموقعة بين الملك الكامل والملك فردريك.
- **المرحلة الثالثة:** فقد كانت في عام 1243 م حيث اتفق الناصر داود صاحب الكرك والقدس مع الصالح إسماعيل صاحب دمشق على محاربة صاحب مصر الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل، ووافق الفرنجة على أن يكونوا عوناً لهم على الملك الصالح، ووعداهم أن يسلما إليهم القدس وطبريا وعسقلان وتسلموها وعمّروا قلعتي طبريا وعسقلان، وتمكن الفرنجة من الصخرة بالقدس، وجلسوا فوقها يحتسون الخمر، وعلقوا الجرس على المسجد الأقصى،[1] وكان ذلك سنة 641 هـ وفق 1243 م.

المطلب الحادي عشر: نهاية حكم الأيوبيين

بدأ حكم الأيوبيين وتألق نجمهم في عهد صلاح الدين الأيوبي، وظلت القدس معظم أيامها تحت حكم الأيوبيين، ما عدا فترتي المدة الأولى التي تمت في عهد الملك الكامل، والملك فرد ريك والتي استمرت لمدة عشر سنوات كما أسلفنا، والفترة الثانية في عهد الأميرين الأيوبيين بالاتفاق مع الفرنجة، وأخيراً أعد الفرنجة الحملة الصليبية السابعة، بقيادة لويس التاسع عام 647 هـ وفق 1249 م حيث كانت هذه الحملة معدة لاحتلال القدس، وقد دارت المعارك الشرسة بين جيش الملك الصالح نجم الدين أيوب وبين جند هذه الحملة وفي نفس السنة توفي الملك نجم الدين وكانت القدس تحت إمرته، وتولى القيادة بعده ولده الملك المعظم غياث الدين توران شاه.

أتم توران شاه معركة المنصورة التي دارت بين الفرنجة وبين جنده، وقتل من الفرنجة نحو 30 ألفا.وأسر ملكهم لويس التاسع وكانت هذه الواقعة عام م1250 وكانت من الوقائع الفاصلة بين المسلمين والفرنجة.

على الرغم من التفوق العسكري، الذي أبداه هذا الملك الأيوبي، وما تمتع بيه من جرأة وحسن قيادة، وكانت معركته مع الفرنجة معركة فاصلة في تاريخ الحروب الصليبية، بيد أنه لم يحسن ألإدارة الداخلية لملكه، وأعطى المناصب لغير أهلها، وانهمك في الفساد وانحاز عن جادة الصواب

(1) المقريزي، مصدر سابق، ج2 ص 315 .

والإعداد، فنفرت منه قلوب الناس وتآمروا عليه وقتلوه عام 648 هـ وفق 1250 م وبقتله انقرضت دولة بني أيوب بمصر.

طويت بمقتل هذا الملك الأيوبي صفحة خالدة سطرها الأيوبيون في تاريخ هذه الأمة، وقد كانت معنونة بالبطل صلاح الدين الذين خلد اسمه وبرز فعله على مر العصور، وكانت مدة حكمهم للقدس اثنتين وخمسين سنة وكانت على النحو التالي:

من سنة 1187 م – 1229 م 42 سنة

من سنة 1239م - 1243 م 4 سنوات

من سنة 1244م - 1250 م 6 سنوات

انتهى حكم الأيوبيين لمدينة القدس على النحو الذي ذكر سابقاً،فدخلت أخيراً في حوزة المماليك، لو لم يكن للأيوبيين أعمال تذكر لكفاهم فخراً تحرير القدس من ربقة الفرنجة لمرات ثلاث وتسليمها لقادة آخرين، فالتاريخ يذكر هؤلاء القوم، وكلما ذكرهم فإن القدس ترتبط بهم، وهم يرتبطون بها ولا يمكن أن تفارق وجدانهم، فقد حرروها بالدماء الزكية ووحدوا الأمة شرقا وغربا وتركوا في هذه الديار آثاراً خالدة تحكي قصة حياتهم ووجودهم فيها.

الفصل السادس

المبحث الأول

القدس بأقلام الرحالة المسلمين والغربيين

المطلب الأول: القدس بأقلام الرحالة المسلمين:

حازت القدس على أوصاف الرحالة من المسلمين والغربيين، وهذا ما لم يتيسر لغيرها من المدن العالمية على مر العصور، وذلك لأهمية هذه المدينة، ولكونها خالدة في أذهان المؤمنين من عرب وغيرهم.

كان على رأس هذه النخبة من الذين أجادوا في وصفها الرحالة الذين عاشوا وشاهدوها ونقلوا لنا صوراً حية عن واقعها الذي كانت فيه هذه المدينة، وعلى رأسهم من الرحالة المسلمين:

القدس على لسان الرحالة الإدريسي: توفي هذا الرحالة عام 506 هـ وفق 1165 م ويصف بيت المقدس قائلا "مدينة جليلة قديمة البناء، وكانت تسمى إيليا، وهي على جبل يصعد إليها من كل جانب، وهي ذاتها طويلة، وطولها من المغرب إلى المشرق، وفي طرفها الغربي باب المحراب، وهذا الباب عليه قبة داود، وفي طرفها الشرقي باب يسمى باب الرحمة، وهو مغلق ولا يفتح إلا من عيد الزيتون لمثله، ولها من جهة الجنوب باب صهيون، ومن جهة الشمال باب عمود الغراب.

وقد تناول الإدريسي وادي جهنم وما به من كنائس وأديرة فيقول "وأما ما يلي بيت المقدس في ناحية الجنوب، فإنك إذا خرجت من باب صهيون وسرت مقدار رمية حجر وجدت كنيسة صهيون، وهي كنيسة جليلة حصينة وفيها العلبة التي أكل فيها السيد المسيح مع التلاميذ وفيها المائدة باقية إلى الآن، ولها ميعاد في يوم الخميس، ومن باب صهيون تنزل في خندق يعرف بواد جهنم، وفي طرف الخندق كنيسة على اسم بطرس، وفي هذا الخندق عين سلوان وهي العين التي أبرأ بها السيد المسيح الضرير الأعمى، ولم يكن له قبل ذلك عينان ومن هذه العين المذكورة إلى الجنوب الحقل الذي يدفن فيه الغرباء، وهي أرض اشتراها السيد لذلك وبقربها بيوت كثيرة منقورة في الصخر وفيها رجال قد حبسوا أنفسهم عبادة"[1].

القدس على لسان الهروي: توفي الهروي عام 611 هـ وفق 1215 م وهذه أوصاف الحرم القدسي الشريف في كتابه "الإشارات إلى معرفة الزيارات"

---

(1) الإدريسي، نزهة المشتاق ج4 ص 362 .

ما كتبه عن الأماكن المسيحية "وبالقدس كنيسة اليعاقبة، بها بئر يقال أن المسيح أغتسل منها، وآمنت السامرية على يده عندها. ويزورونها ويعتقدون بها. وبالقدس برج داود (عليه السلام) ومحرابه المذكور في القرآن العزيز ... وبظاهر القدس كنيسة السابق، يقال إن المسيح (عليه السلام)رفع منها إلى السماء. وكنيسة صهيون يقال إن المائدة نزلت على عيسى بن مريم والحواريين بها.

وأما زيارات الملة المسيحية فأعظمها كنيسة قمامة (القيامة) وعمارتها من العجائب المذكورة ... ولهم فيها المقبرة التي يسمونها القيامة، وذلك أنهم يعتقدون إن المسيح قامت قيامته في ذلك الموضع، والصحيح أن الموضع كان اسمه قمامة لأنه كان مزبلة للبلد.

وكان ظاهر البلد تقطع به أيدي المفسدين، وتصلب به اللصوص، هذا ذكر في الإنجيل والله أعلم، ولهم فيها الصخرة التي يزعمون أنها انشقت، وقام آدم من تحتها لأنها كانت تحت الصلبوت بزعمهم، ولهم فيها بستان الصديق (عليه السلام) يزرونه، وأما نزول النور فإني أقمت بالقدس زماناً على عهد الفرنجة إلى أن عرفت كيفية عمله.

القدس في وصف معجم البلدان لياقوت الحموي المتوفي عام 626 هـ وفق 1229 م. قوله "المقدس: في اللغة المنزه. قال المفسرون في قوله تعالى: (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) قال الزجاج: معنى نقدس لك، أي نطهر أنفسنا لك، وكذلك نفعل بمن أطاعك نقدسه أي نطهره، قال: ومن هذا قيل للسطل القَدَس لأنه يتقدّس منه أي يتطهّر، قال: ومن هذا بيت المقدس، كذا ضبطه بفتح أوله، وسكون ثانيه وتخفيف الدال وكسرها، أي البيت المقدس المطهرّ الذي يتطهر به من الذنوب، قال مروان:

قل للفرزدق والسفاهة كاسمها ... إن كنت تارك ما أمرتك فاجلس

ودع المدينة إنها محذورة ... والحق بمكة أو ببيت المقدس

وقال قتاده: المراد بأرض المقدس أي المبارك.

وبعد أن ذكر المؤلف شيئا عن فضائل بيت المقدس، قال"والذي شاهدته منها أن أرضها وضياعها وقراها كأنها جبال شامخة، وليس حولها ولا بالقرب منها أرض وطيئه ألبته، وزرعها على أطراف الجبال بالفؤوس لأن الدواب لا صنع لها هناك، وأما نفس المدينة فهي على فضاء في وسط تلك الجبال وأرضها كلها حجر من الجبال التي عليها وفيها أسواق كثيرة وعمارات حسنة.

تحدث المؤلف عن الحرم الشريف ثم عاد بعد ذلك إلى وصف المدينة، وفيها مغاير كثيرة، ومواضع يطول عددها، مما يزار ويتبرك به، ويشرب أهل المدينة من ماء المطر، وليس فيها دار إلا وفيها صهريج، لكنها مياه رديئة أكثرها يجمع من الدروب، وإن كانت دروبهم حجارة ليس فيها ذلك الدنس

الكثير، وبها ثلاث برك عظام: بركة بني إسرائيل، وبركة سليمان (عليه السلام) وبركة عياض عليها حماماتهم.

بعد أن نقل وصف البشاري للقدس عن كتابه "أحسن التقاسيم" تحدث عن تاريخ القدس منذ دخول عمر بن الخطاب إليها حتى أيامه، ومما ذكره "ولم تزل أي "بيت المقدس" على ذلك بيد المسلمين، والنصارى من الروم والإفرنج والأرمن وغيرهم من سائر أصنافهم يقصدونها للزيارة إلى بيعتهم المعروفة بالقمامة (القيامة) وليس لهم في بالأرض أجل منها حتى انتهت إلى أن ملكها سكمان بن أرتق وأخوه إيلغازي جد هؤلاء الذين بديار بكر صاحب ماردين وآمد، والخطبة تقام فيها لبني العباس، فاستضعفهم المصريون وأرسلوا إليهم جيشا لا طاقة لهم به، وبلغ سكمان وأخاه خبر ذلك فتركوها من غير قتال، وانصرفوا نحو العراق. وقيل: بل حاصروها ونصبوا عليها المجانيق، ثم سلموها بالأمان، ورجع هؤلاء إلى نحو الشرق وذلك في سنة 491 هـ.

ثم ذكر ياقوت خروج الفرنجة من بلادهم واستيلائهم على القدس إلى أن يقول: (ولم يزل في أيديهم حتى استنفذه منهم الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب في سنة 583 هـ بعد إحدى وتسعين سنة أقامها في يد الإفرنج، وهي الآن في يد بني أيوب، والمستولي عليهم الآن منهم الملك المعظم عيسى بن العادل أبي بكر بن أيوب، وأنهى حديثه بقوله: "من أعظم محاسنه (أي الحرم الشريف) أنه إذا جلس إنسان فيه في أي موضع منه يرى أن ذلك الموضع هو أحسن المواضع وأشرحها، ولذا قيل، إن الله نظر إليه بعين الجمال ونظروا إلى المسجد الحرام بعين الجلال:

أهيم بقاع القدس ما هبّت الصبا ... فتلك رباع الأنس في زمن الصبا

وما زلت في شوقي إليها مواصلا ... سلامي على تلك المعاهد والربا

والحمد لله الذي وفقني لزيارته"[1]

ذكر ياقوت الحموي الساهرة" فقال موضع ببيت المقدس. وقال أبو عباس: الساهرة أرض القيامة أرض بيضاء لم يسفك فيها دم."[2]

يمكننا ألا نأخذ بما أورده القزويني بالمسلمات، فقد أجاد هذا الشخص في وصف القدس في زمانه، ولكنه قد أخطأ في تاريخ بناء القدس، فيرجعها إلى عهد داود ويكمل البناء سليمان (عليهم السلام).

---

(1) الحموي، ياقوت، معجم البلدان 5 / 166 – 171 .

(2) المصدر نفسه 3/ 103.

إن جميع الأدلة التاريخية تثبت أن القدس قد بنيت قبل داود وسليمان (عليهم السلام) بآلاف السنين وكان فيها أمم وشعوب أخرى واحتلها داود من اليبوسيين وهذا باعتراف الكتاب المقدس لدى أتباع داود وسليمان، ولا نشك في قدم هذه المدينة ومن البناة الأوائل لها والحضارات التي مرت عليها، فهي من أقدم مدن التاريخ بالدليل النبوي والتأريخ البشري المتفق عليه بين جميع طبقات المؤرخين.

لطالما أننا في وصف القدس وعرصاتها والكنائس وساحاتها والطرق وحاراتها، فمن الجدير بنا أن نسمع ما يصفه ياقوت الحموي عن المساجد وباحاتها والمقدسات وزياراتها، فيقول في كتابه "معجم البلدان" عن المسجد الأقصى المبارك وصف عيان ومشاهدة في العهد الأيوبي.

" أما الأقصى فهو في طرفها الشرقي نحو القبلة أساسه قديم، وهو طويل عريض وطوله أكثر من عرضه، وفي نحو القبلة المصلى، الذي يخطب فيه الجمعة وهو على غاية الحسن والإحكام مبني على أعمدة الرخام الملونه والفسيفساء، التي ليس في الدنيا أحسن منها لا جامع دمشق، ولا غيره، وفي وسط صحن هذا الموضع مصطبة عظيمة في ارتفاع نحو خمسة أذرع كبيرة يصعد إليها الناس من عدة مواضع بدرج، وفي وسط هذه المصطبة قبة عظيمة على أعمدة رخام مسقفة برصاص منمقة من برّا وداخل بالفسيفساء مطبقة بالرخام الملون قائم ومسطح، وفي وسط هذا الرخام قبة أخرى وهي قبة الصخرة التي تزار وعلى طرفها أثر قدم النبي (صلى الله عليه وسلم)وتحتها مغارة ينزل إليها بعدة درج مبلطة بالرخام قائم ونائم يصلي فيها وتزار، ولهذه القبة أربعة أبواب،وفي شرقها برأسها قبة أخرى على أعمدة مكشوفة حسنة مليحة يقولون إنها قبة السلسلة، وقبة المعراج أيضا على حائط المصطبة، كل ذلك على أعمدة مطبق أعلاها بالرصاص...."[1]

المطلب الثاني: القدس بأقلام الرحالة الغربيين.

القدس في رحلة الحاج الروسي دانيال الراهب في الديار المقدسة 1106 م وفق 501 هـ مدينة بيت المقدس The City of Jerusalem "إن بيت المقدس مدينة واسعة يحميها أربعة جدران قوية، ومبنية على هيئة مربعة، حيث أن جهاتها الأربع لها نفس الطول، ويحيط بها كثير من الأودية القاحلة، والجبال الصخرية. والمنطقة خالية من الماء بشكل مطلق، حيث لا يجد المرء نهرا، أو آبارا أو ينابيع قرب بيت المقدس، باستثناء بركة سليمان (Pool of siloam) لذلك ليس أمام سكان المدينة والماشية شيء يستخدمونه سوى ماء المطر، وبالرغم من ذلك فالحنطة تزدهر بشكل جيد في تلك الأراضي الصخرية التي ينقصها المطر، والحمد لله على فضله ورحمته حيث أن محاصيل القمح والشعير ممتازة، وعند بذار مكيال واحد، نستطيع الحصول على مائة وتسعين عند الحصاد، أليست بركة الله تخيم على هذه الأرض

(1) شراب، محمد محمد حسن، مصدر سابق، ص 424.

المقدسة؟ وفي المناطق المجاورة لبيت المقدس تكثر أشجار الكرم والفاكهة، وأشجار التين والزيتون وأشجار الخروب وعدد لا نهاي له من مختلف الأشجار والنباتات، على جبل الزيتون، وفي الجهة الجنوبية منه، وبالقرب من موضع صعود المسيح، هناك كهف عميق يحتوي على ضريح القديس بيلاجيا (Saint Pelagia) المحظي.

وهو رجل متقشف مستعمد[1] يعيش هناك."[2]

استطرد الرحالة في وصف بيت المقدس وأكتاف بيت المقدس، حيث يستعرض في الفقرة 27 من وصفه الطريق المؤدية إلى نهر الأردن من بيت المقدس، أما في الفقرة 28 فإنه يصف جبل حرمون وفي الفقرة 29 فإنه يصف المكان الذي شاهد البحر ما جرى ثم هرب، وحيث تراجع نهر الأردن، وفي الفقرة 30 يصف المكان الذي تعمّد فيه السيد المسيح (عليه السلام)وفي الفقرة 31 فيصف مكان الاستحمام، يستطرد الرحالة في الفقرات 43 متحدثاً عن بركة سلوان وفي الفقرة 44 يتحدث عن بستان الخزاف"[3]

ويحدثنا الحاج بور شارد من دير جبل صهوين (وصف الأرض المقدسة) عن القدس في هذه الفترة.

" أما بيت المقدس،مدينة الإله الأعلى، فهي تقع في منطقة جبلية، وتحيط بها الجبال من كافة الجوانب، وعلى الرغم من ذلك فإن أراضيها توصف بأنها خصبة، كما توصف في هذه الأيام، ويستثنى من ذلك الجانب الشرقي من المدينة الذي يقع باتجاه الأردن، أما المناطق المجاورة للمدينة فهي أيضا تمتاز بالخصوبة، وهي تقع على بعد ستة وثلاثين فرسخاً من عكا، الواقعة بالشمال. وستة عشر فرسخاً من سبسطية وثلاثة عشر فرسخاً من شكيم، وسبعة وثلاثين فرسخاً من الناصرة. وكل هذه الأماكن تقع إلى الشمال من بيت المقدس، وتقع المدينة على بعد ثلاثين فرسخاً من يافا التي تقع غربي بيت المقدس بانحراف قليل نحو الشمال، والمدينة تقع على بعد سبعة فراسخ من أريحا الواقعة شرق المدينة المقدسة،

---

(1) رجل مقدس كبير جدا، مرعب عند النظر إليه، متزمت أو صارم جدا، وهو (دانيال) عن نفس الرجل الناسك الذي تمت الإشارة إليه من قبل البرت دكس (Albert d, Aix) والذي استشاره الصليبيون في حصار بيت المقدس عام 1099 م 492 هـ. ويظهر قبر بلاجيا الآن من ذلك القديس المسلم تحت كنيسة القيامة بإتجاه الجنوب الغربي. CF. P.F. Mem. Jerusalem, 399,424.الترجمة الإنجليزية.

(2) الراهب، دانيال رحلة الحاج الروسي في الديار المقدسة 1106 – 1107،الترجمة عن الفرنسية الكولونيل السير سي. دبليو ويسلون نقلها إلى العربية وعلق عليها د. سعيد عبد الله البيشاوي وداود إسماعيل أبو هدبه.ص68.

(3) رحلة الحاج الروسي دانيال الراهب، المصدر السابق، ص 90 .

وإلى الجنوب من بيت المقدس تقع بيت لحم، على بعد فرسخين من المدينة، وتقوع على بعد ثمانية فراسخ منها، وكذلك تقع مدينة الخليل على بعد مسافة ثمانية فراسخ من المدينة المقدسة.

ويمكن القول أن بيت المقدس تقع على منحدر هضبي، وأن موقعها يتخذ شكلاً مزدوجاً، مصدر الجانب الجنوبي والجانب الغربي، فالمدينة تقع على طول حافة جبل صهيون جنوبا،أو بالأحرى فإن جزءاً منها يقع على جبل صهيون نفسه، والجزء الأخر يقع على منحدر ذلك الجبل، أما طولها فيمتد من جبل صهيون باتجاه الشمال، ويستمل الجانب الغربي من مدينة بيت المقدس على جبل جيحون ومنها يمتد عرضها شرقا حتى وادي قدرون أو وادي جوسفات، وهما اسمان لنفس الموقع.

وهي مدينة واسعة وجميلة، كما سوف أخبرك، ولا تقع في مكان مختلف عما كانت علية في وقت آلام السيد المسيح (عليه السلام) ليلة العشاء الأخير، حسبما أوضح عبثا من قبل البعض، يمكن القول بأن هذا الرحالة قد أجاد في وصف هذه المدينة بدقة متناهية، حيث أنه استعرض تلالها ووديانها وجبالها وسهولها ومياهها وبيوتها وموقعها واتصالها بالأماكن الأخرى، فهو وصف دقيق معبر وجميل وقد وفى بما فيه ... ولمن أراد الاستزادة عن هذا الموضوع فليرجع إلى كتابه الذي يعتبر وصفه وصفاً دقيقاً وكافياً عن القدس في عصره، وأثناء رحلته إلى هذه الديار. (1)

وفي سنة 1172 م 567 هـ أي قبل معركة حطين بمدة قصيرة زار فلسطين الحاج تيو دوريتش، الألماني. وهو كما يقول صاحب رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، أول كاتب أوروبي في القرون الوسطى يعني بوصف فلسطين وصفاً عاماً، قال الحاج "إن بلاد القدس جبلية وتبلغ أقصى ارتفاعها حول المدينة المقدسة، وهذه الجبال صخرية، لكن صخورها جميلة، فيها الأبيض والأحمر والرخام المتعدد الألوان، وكلها صالحة لأخذ حجارة البناء، أما حيث يتجمع بعض التراب بين الصخور فتنمو جميع أنواع الفواكه، وتكون الجبال مكسوة بالكروم والزيتون والتين، وأما الأودية فتملأها الحبوب والبساتين، وفي أحد فصول كتابه: ذكر جبال القدس وأوديتها ويوضح، علاقتها بعضها ببعض، ويذكر عين سلوان ويعرض لأسطورة تقول إن ماء هذه العين يأتي من شيلوه، ثم ينقدها ذاكراً استحالة هذا الأمر من ناحية طبوغرافية "(2)

وفي موضع آخر قال تيودوريتش عن القدس ما يأتي "يغلب على شوارعها أنها مبلطة بألواح كبيرة من الحجارة وأنها مسقوفة بعقود حجرية. فيها نوافذ يدخل منها النور وبيوتها مبنية من الحجر

---

(1) الحاج بورشارد من دير جبل صهيون (وصف الأرض المقدسة) ترجمة د. سعيد عبد الله البيشاوي،ط1، عمان: دار الشروق؛ 1995م، ص 127.

(2) رواد الشرق العربي مصدر سابق، ص 84 .

الجميل النقش، وأسطحها مستوية، ليست كأسطح بيوتنا المنتهية بمخروط، ويجمع السكان ماء المطر في آبار لأنه لا يوجد أي ماء آخر في بلدهم. والخشب غالي الثمن في بلاده لبعد مورده"

وهناك حديث آخر عن القدس في القرن الثاني عشر الميلادي، كما هو مبين أدناه" بالقرب من كنيسة يوحنا المعمدان يقوم مستشفى يقيم فيه عدد كبير من الرجال والنساء المرضى، وينالون العناية التي تكلف نفقات باهظة، وقد بلغني لما كنت هناك، أن عدد المرضى هناك بلغ الألفين، وقد بلغ عدد الموتى منهم في اليوم الواحد الخمسين، وقد يعالج في العيادة الخارجية مثل عدد المرضى المقيمين في المستشفى هذا فضلاً عن أعمال الإحسان، التي لا تقدر إذ يتصدق يوميا على السائلين وأبناء السبيل بالخبز. "[1]

يوحنا الورزبرجي: زار هذا الرحالة القدس ما بين عامي 1160م – 1170م ويبدو أن هذا الرحالة الألماني، زار بيت المقدس قبل أن يسترد صلاح الدين القدس عام1187م فيقول في كتاباته وتجدر الإشارة، إلى أن الصليبيين حولوا قبة الصخرة إلى كنيسة أسموها معبد السيد Templum Domini كذلك أطلقوا على المسجد الأقصى معبد سليمان Templum Solomnis وقسموه إلى ثلاثة أقسام، الأول كنيسة، والثاني مسكنا للداوية والثالث مستودعا لذخائرهم، كذلك جعلوا من السراديب التي أسفل المسجد إسطبلا لخيولهم وجمالهم، ويبدو أن يوحنا الورزبرجي قصد بهذا الإسطبل، القسم الخاص بدواب الداوية، وتعكس الأرقام التي قدمها لنا ذلك الرحالة، مدى إمكانيات الداوية الحربية، وقدرتهم على امتلاك آلاف الخيول والجمال وهي لازمة لعمليات القتال، الكر والفر، وحمل الأمتعة ومعدات الحرب. [2]

المطلب الثالث: القدس في زيارات الزوار اليهود

في تلك الفترة زار فلسطين في تلك الفترة سائحان يهوديان وهما بنيامين التودلي (التو طلي) الأسباني سنة 1160 م 1173 م (555- 685 هـ) وبتاحيا بين 1170 م 1187 م (565 هـ 583 هـ).

"ذكر الأول أن زلزالاً قوياً هز سوريا وقُتل من أهل فلسطين عشرون الفا. وروى قصة مؤداها أن عاملين كانا في جبل صهيون عثرا على قبر الملك داود، ورأيا قاعة كبيرة مزينة بالذهب والفضة، لكنهما ما كادا يدخلان حتى عصفت ريح شديدة قذفت بهما خارج القاعة، فاقدي الوعي، ولم يجرؤا بعد ذلك إلى العودة إلى ذلك المكان نفسه، وقد سد المكان المنفتح بجدار.

---

(1) المصدر نفسه ص 136.

(2) عوض، محمد مؤنس أحمد، الرحالة الأوربيون في مملكة بيت المقدس الصليبية 1099 م،1187م ص 126.

أما بتاحيا الراتسبوني فهو يهودي ألماني ، وقد ذكر أنه كان في القدس أيام زارها يهودي واحد فقط، هو الحاخام إبراهيم هلتسيفع (الصباغ) وسمي كذلك لأنه كان يعمل في هذه الصناعة، وقد كان يدفع ضرائب باهظة للملك الذي كان يحكم آنذاك وقد اصطحبه الرابي إبراهيم لرؤية جبل الزيتون[1]

هنا وقفة لا بد منها على أقوال هذين الزائرين اليهوديين في تلك العصور:

- **الملاحظة الأولى:** أن قصة العاملين وما وجداه في قبر سيدنا داود (عليه السلام) فلا تخلو هذه القصة من الخيال والمبالغة والإسرائيليات الزائفة.
- **الملاحظة الثانية:** وهي أن القدس لم يكن فيها تواجد لليهود، وهذه حقيقة قد اعترفا بها هذا الزائران بل أن أهل البلاد هم من العرب المسلمين وأن هذه الديار لأهلها الحقيقيين الذين عاشوا فيها منذ عصور متلاحقة وحموها بصدورهم من الغزاة سواء كانوا صليبيين أو غيرهم.

هذه القدس على ألسنة الرحالة والزوار المسلمين أو الغربيين (الفرنجة) أو الزوار اليهود. مما هو جدير بالذكر، أن أوصاف القدس تكاد تكون متشابهة تماماً حتى على ألسنة جميع من كتبوا عنها وخلدوا ذكرها في مدوناتهم، فهي مدينة تجمع عليها جميع المعلومات أنها مدينة مقدسة وطاهرة وأرض مباركة، وان في القدس معالم بارزة وثوابت راسخة لا يمكن لآي زائر أو سائح مهما كانت توجهاته أن يتجاوز عنها وألا يذكرها لأنها محطات بارزة وأماكن عبادة خالدة في قلوب المؤمنين، وهذا ما تنفرد به القدس عن غيرها من المدن، وهي صنو مكة والمدينة في هذه المعالم التي تعتبر هي الأساس في تكوين هذه المدينة الخالدة.

(1) المصدر نفسه، 1992م .